المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد..

الدعوة إلى الله عز وجل شأنه عظيم ، وأثرها جسيم، بها تتحقق عبودية الله عز وجل في أرضه، وبها يمكن الله لدينه وأوليائه، وبها يحقق الله الحق ويبطل الباطل، بل بها يرفع الله سخطه وغضبه عن خلقه.

يقول الله تعالى: " ومن أحسن قولاً ممَّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين".

ويقول الإمام ابن القيم: " فمقام الدعوة إلى الله أفضل مقامات العبد".

ويقول الإمام أحمد بن حنبل: " الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويبصرون من همَّ على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله العمْيَ، فما أحسن أثرهم على الناس، وما أسوأ أثر الناس عليهم".

أمـــا لـــلـــه والإســـلام حـــق يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا أجيبوا الله ويحكم أجيبوا

هذه الدعوة تتعرض، وهي تشق طريقها، إلى تحد كبير وإلى فتن لا تُعد ولا تُحصى، فتارة تُتهم بالنقص والقصور، وتارة تُرمى باستغلال الدين لمصالحها الشخصية، وكثيراً ما تُقذف بالتطرف والإرهاب والرجعية، وأحياناً يجرح أصحابها بالانحراف الفكري أو العقدي أو الحضاري.

وقال الله تعالى: " أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين من قبلكم مسَّتهم البأسآء والضرّاء وزُلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب ".

هذه التهم ، وتلك الشبهات هي أسلحة فتَّاكة قصمت ظهر الأمة على مر تاريخها الإسلامي، بل فعلت فعلتها في أفضل جيل، وهو جيل الصحابة رضوان الله عليهم، وما فتنة علي ومعاوية رضي الله عنهما ومن قبل مقتل ذي النورين عنا ببعيد.

إن المسلمين اليوم يعانون الأمر نفسه ولكن بألوان وأساليب أخرى، فاليهود والنصارى وبعض العلمانيين والنفعيين والحاقدين على الدعوة والدعاة يتربصون وينفثون سمومهم بالليل والنهار.

وأحياناً يكون مصدر هذه التهم والشبهات المسلمين أنفسهم، بل وربما بعض الأحبة الدعاة إلى الله تعالى، فتعظم المصيبة ويشتد البلاء.

لقد حاولت جمع جوانب هذا الموضوع المتناثرة في مواقع كثيرة ليسهل متابعتها والإلمام بها، كما أنني عمدت إلى اختصار بعض ما كتبه الآخرون وتطويع بعضه الآخر مع الإشارة إلى ذلك ذلك في مواضعه، فضلاً عن إضافة ما استحسنت إدراجه إلى هذا الموضوع إتماماً للفائدة.

ونظراً لحاجة الدعوة الإسلامية إلى التأصيل العلمي وإلى المنهجية في الفكر والعمل أكثر من حاجتها إلى العموميات والعواطف، فقد تم التركيز على مسألة أظنها مهمة وهي القواعد والأصول التي يحسن الأخذ بها عند التعامل مع الشبهات.

ولقد تناولت خمساً وستين قاعدة للتعامل مع الشبهات، ولا يعني ذلك أنني استطعت جمع كل القواعد والأصول في هذا الموضوع، ولكنها محاولة أحببت إضافتها في هذا المجال الحيوي والمهم، عسى الله تعالى أن ينفع بها وأن يوفق للأخذ بما فيها، وأسأل الله تعالى الإخلاص والقبول وحسن الختام.

كتبتُ وقد أيقنتُ يـــوم كتابيَ بأن يدي تفنى ويبقـــى كتـــابها
فإن عملت خيراً ستجزي بمثله وإن علمت سوءاً عليها حسابها

قسمت القواعد سالفة الذكر إلى ثلاثة أقسام، كل قسم في كتاب مستقل، وذلك تسهيلاً للقارىء، إذْ إن كثيراً من الناس لا تهفو نفوسهم إلى المجلدات الكبار، وإنما يفضلون الكتيبات الصغار، وقد أطلقت على كل كتاب اسم مختلف عن الكتاب الآخر، وهي كما يلي:

١. الكتاب الأول بعنوان " في قفص الاتهام ".
٢. الكتاب الثاني بعنوان " خفافيش أعماها النهار".
٣. الكتاب الثالث بعنوان " ولا تهنوا في ابتغاء القوم ".

وبعد كتابنا الأول " في قفص الاتهام "، وكتابنا الثاني " خفافيش أعماها النهار " فإننا ندعوك أخي القارىء إلى الاستمرار معنا في كتابنا الثالث " ولا تهنوا في ابتغاء القوم " ، وهو تتمة للكتابين الأول والثاني، وفيه ذكر لخمس وعشرين قاعدة أخرى نكون بها قد أتممنا خمس وستين قاعدة في منهجية التعامل مع الشبهات ودحضها والقضاء عليها بإذن الله تعالى.

إننا ندعو أنفسنا وإخواننا الدعاة الصالحين أن ترتفع نفوسنا وتسمو أرواحنا ونكون فوق التهم والشبهات، وصدق الله تعالى إذ يقول: " ولا تهنوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً ".

أخي أنت حرٌ وراء السدود أخي أنت حرٌّ بتلك القيـــود
إذا كنت بالله مستعصـــماً فماذا يضيرك كيـــد العبـــيد
أخي ستبيد جيوش الظلام ويشرق في الكون فجر جديد
فأطلق لروحك إشـــراقها ترى الفجر يرمقنا من بعـــيد

والحمد لله رب العالمين.

أبو عبد الله

د. علي الحمادي

منهجية التعامل مع الشبهات وقواعد دحضها

فيما يلي سأتناول بإذن الله تعالى بعض القواعد الهامة والأصول الرئيسة التي ينبغي الأخذ بها والتعامل على أساسها في مواجهة الشبهات، وذلك ليتم التخفيف منها أو القضاء عليها أو الحد من آثارها، بخطوات منهجية وأساليب علمية بعيدة عن العواطف التي لا تقوم على علم ولا يؤيدها عقل ولا يسندها منطق.

السياسة والمصالح

يتكلم بعض الناس في اجتهادات بعض الدعاة ومواقفهم السياسية ويتهمونهم بالتناقض والميوعة والمداهنة، وسبب ذلك أن هؤلاء المسلمين (ومنهم بعض الصالحين) لم ينتبهوا إلى أن المسلم غير مكلف بما لا يطيق، وأن السياسة ما هي إلا ترجيح بين المصالح، بل إن مدار الشريعة قائم على ذلك.

يقول الإمام ابن تيمية في (السياسة الشرعية): " فإن مدار الشريعة على قوله تعالى: " فاتقوا الله ما استطعتم " (التغابن: الآية 16)، المفسر لقوله: " يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون " (آل عمران: الآية 102)، وعلى قول النبي صلى الله عليه وسلم: " إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم "، وعلى أن الواجب تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ورفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناهما: هو المشروع ".

ويقول كذلك الإمام ابن تيمية: " فمن ولي ولاية يقصد بها طاعة الله وإقامة ما يمكنه من دينه ومصالح المسلمين، وأقام فيها ما يمكنه من الواجبات واجتناب ما يمكنه من المحرمات: لم يؤاخذ بما يعجز عنه ".

إن الحقيقة التي ينبغي للمسلمين أن يدركوها أن الدعاة إلى الله لا يملكون زمام الأمور كلها، بل تحيط بهم مخاطر كثيرة، وربّ موقف واحد يتخذونه قد تتعرض بسببه الدعوة الإسلامية والدعاة إلى مهالك كثيرة.

لذلك فإنهم في الغالب يجتهدون في أمورهم، ويرجحون بين المصالح، ويسعون إلى درء أكبر المفاسد، وكل ذلك من أجل حفظ دعوة الله من أن يمسها ما يجعلها عاجزة عن القيام بواجبها تجاه هذا الدين، وهم بعد ذلك غير مطالبين شرعاً عما عجزوا عنه.

إن الذي يجلس على أريكته، والذي لا همّ له إلا القراءة والتعلم (رغم أهمية ذلك) في الأماكن المريحة الآمنة، دون أن يقارع الظلم والظالمين، ودون أن يخوض معترك الحياة العملية، ليواجه الفساد بشتى أنواعه

وهو يدب في جسد هذه الأمة، أقول من كان هذا هو حاله فإنه يصعب عليه أن يدرك أبعاد الاجتهادات السياسية للدعاة.

ولذلك لما جرب بعض مثيري الشبهات والاتهامات وخاضوا المعتركات السياسية، وواجهوا الواقع المرير، اضطروا إلى اتخاذ المواقف والاجتهادات التي اتخذها من كانوا ينتقدونهم من قبل ويتهمونهم بالميوعة والتناقض والانحراف.

يقول الأستاذ محمد أحمد الراشد في كتابه القيم " العوائق ": " ويتداول حديث عن أخطاء سياسية ترتكبها القيادات، وما هي بأخطاء في حقيقتها لمن أمعن النظر، لكنه تفضيل بين المصالح، واتباع لقاعدة الفقهاء في الحرص على أكبر المعروفين عند تعارضها ولو بتفويت أدناهما، واحتمال أيسر المفسدتين العارضتين لإبعاد أعظمهما وأكبرهما.

ولقد أطال الإمام ابن تيمية رحمه الله النفس في بيان هذه القاعدة، وتصويبها، والأمر بالعمل بها، حتى أنه أفتى في هذا الباب بإفتاءات يظنها من لا يخبر السياسة غريبة معيبة.

وأغلب هه المواقف المنتقدة على الحركة مخرجة على هذه القاعدة في الموازنة بين مراتب المعروف والمنكر ودرجات المصالح والمفاسد، فما من تعاون مع حزب معيب، أو تصريح بثناء على فعله حسنة من حاكم لم يتم إسلامه، أو ما شابه ذلك، إلا وللقيادات فيها تأويل مستخرج وفق هذا الإفتاء.

ولا ندّعي أن كل هذه التصرفات المعتمدة على هذه القاعدة كانت صواباً دوماً في نتائجها، فإن ذلك ليس ركناً في توثيق المسلم، إنما هو يجتهد في باب السياسة كما في غيرها، فيصيب ويخطئ تبعاً لمدى فراسته وطويل تجربته، إنما الركن المهم هو أن هذا التأويل والاجتهاد يستند إلى أقوال معتمدة في مذاهب أعيان الفقهاء القدماء.

ومع ذلك فلا يمكن للقيادات على طول الخط أن تكشف حوارها حين تقرير مثل هذه الخطوات القائمة على الموازنة بين المصالح والمفاسد، ذلك لأنها قد تعتمد على أسرار لا يسوغ كشفها، أو تبريرات مضمرة لا تريد أن يتسرب علمها إلى أعداء الإسلام، فيحورون خطتهم العدائية تبعاً لذلك.

فأنصف أيها الناقد، ذلك خير، وكفاك هذا أيها الداعية، لا تطلب الرد حرفاً بحرف، فإنها متاهة والله متاهة الردود ". (انتهى كلام الراشد)

لذا ينبغي أن ندرك هذه القاعدة التي سطّرها علماؤنا من قبل، وأن نعذر إخواننا في اجتهاداتهم السياسة، وإذا لم نتفق مع اجتهادهم فينبغي أن ندخلهم في دائرة الخطأ والصواب لا دائرة التفسيق والتضليل، وشتان بين هاتين الدائرتين.

ألعوبة الاستدراج

إن طبيعة مثيري الشبهات ومروجيها أنهم يطربهم دائماً أن يوقعوا بالخصم، وأن يستدرجوه إلى الزلل، وأن يستثيروا أعصابه حتى يفقدها، وعندها يقع في ما لا يحمد عقباه، فيتكلم بما لا يعي، ويتصرف بما لا يدرك، وربما يزل في أخطاء قاتلة، فيصبح في موقف لا يحسد عليه.

إن من الناس من يتصيد الأخطاء، ويصطاد في الماء العكر، ويستغل الفرص كالذبابة التي لا تقع إلا على المواطن النتنة، فتكون النتيجة أن الناس تنفض عن من لا يستطيع أن يضبط نفسه، وتبتعد عن من يكون ألعوبة بيد الآخرين، بل وتزداد تصديقاً وقناعة وإيماناً بأن الشبهة صحيحة، إذ إنه قد استقر في نفوس الناس أن صاحب الحق قوي واثق من نفسه لا يستثار ولا يستدرج.

لذا يجب عليك أيها الداعية أن تحذر من أن تستدرج إلى ما يفقد السيطرة على عاطفتك، أو أمانتك العلمية، فهناك بعض الناس لا يبحثون عن حقيقة، ولا يجادلون إلا بالباطل، وتدرّبوا على فن المناظرة والاستثارة والاستفزاز والجدل والإيقاع بالآخرين، لا يتقون الله فيما يقولونه، ولا يتورعون عن الأفكار المضللة، وقد يعمدون إلكذب الرخيص بغية إحراج من يناظرون من العلماء أو المفكرين أو الدعاة أو أصحاب المبادىء.

والسيطرة على النفس أمر ليس سهلاً، فهو يحتاج إلى تدريب نفسي طويل، ومن أنجح وسائله محادثة النفس في أوقات الهدوء، وإقناعها أن الانفعال الذي يخرج بها عن حدودها فيه أذى لها، وللفكرة التي تحملها. كن هادىء النفس، ومنبسط الأسارير، وابتسم إن استعت.

وحاول أن تجعل لك محطات تراجع فيها نفسك وتسائلها: هل أنت ملتزم بما سبق أن هيأته من أفكار ؟ وهل أخرجك النقاش عن جادة الاتزان ؟ وهل الأفضل أن تستمر على هذا النسق أم الأفضل أن تعدل من انفعالاتك وطريقتك في الحديث ؟

إن مثل هذه المحطات ذات فائدة كبيرة لأنها تجعل أمرك في يدك وتظل مسيطراً على نفسك، متحكماً في لسانك، متى تقول ومتى تسكت، ومتى ترد ومتى تتجاهل ؟

إن لمتتبع لأحوال نفر من الصالحين يجد التشنج واضحاً في تصرفاتهم، والاستثارة جلية في ردود أفعالهم، حتى إنه ليخشى على أحدهم أن يصاب بالضغط والسكري وأمراض القلب وهو في ريعان شبابه

إن الأمر لا يستدعي كل ذلك، لاسيما إذا فقهنا أن درب الصالحين والدعاة مليء دائماً بالأشواك والإيذاء والاتهامات والشبه، ولم ينج من ذلك أحد حتى الأنبياء والمرسلين، فعلام كل ذلك ؟!

رويداً رويداً أيها الدعاة المخلصون، والعقل العقل أيها الأحباب المجاهدون، والصبر الصبر أيها السالكون المثابرون، والذكاء الذكاء أيها الفطناء العاملون، واعلموا أن العاقبة للمتقين، وأنه لا عدوان إلا على الظالمين.

براءة علم الجرح

يلجأ بعض الناس إلى التشكيك في الصالحين المخالفين لهم وتجريحهم بحجة أنهم يمارسون حق الجرح الذي استخدمه أئمتنا الكرام من سلف هذه الأمة في علم الجرح والتعديل، وعلم الجرح والتعديل براء مما يقولون ويفعلون.

يقول المستشار سالم البهنساوي: " ولا عجب بعد هذا أن تظهر على الساحة شعارات تعلن أنها تمثل الإسلام الخالص وأن غيرها جاهل أو مزعزع العقيدة، ولهذا أباحوا اللعن والسب، بل أوجبوا التشهير بمن خالفهم بدعوى التحذير من بدعتهم وضلالهم.

إن علم الجرح والتعديل لا يجوز أن يحتمي به من استباح التشهير بالمسلمين، فهذا العلم يوجب ذكر علة التجريح التي تجرح الشخص من الرجال العدول، ولا مجال لذلك في هذه الأمور الخلافية.

وعلم الجرح والتعديل يبين شروط الرواية وصفات الشخص المطعون فيه، لينبه الناس من شره ويحذرهم من اتباعه أو من قبول روايته.

وعلم الجرح والتعديل لا يجوز أن يحمي بهمن أصبح طرفاً في خلاف مع الغير، فهذا العلم يشترط في الناقد أن يكون محايداً، وليس صاحب نحلة أو مذهب أو رأي خاص.

إنه جاز لكل فرد اختلف مع غيره في أي حكم من الأحكام الشرعية أن يبحث عن عموم بعض آيات من القرآن ليحتج بها على من خالفهم ممن يتمسكون بالقرآن والسنة معاً، أقول إن جاز أن يجعل عموم آيات القرآن ناسخاً للسنة لما كان للسنة موضع ولا حكم شرعي ولبطل قول الله تعالى: " وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوه ". (الحشر: الآية 7)

لقد فعل ذلك الخوارج، فردوا الأحاديث النبوية التي توجب الرجم، وتمسكوا بعموم آيات سورة النور التي توجب الجلد، وذلك على الرغم من ثبوت هذه الأحاديث النبوية، ومن تطبيق النبي صلى الله عليه وسلم لها، وعلى الرغم من أنه لا خلاف على السنة تخصص عموم آيات القرآن.

كما رد الخوارج الأحاديث النبوية التي تثبت إيمان أصحاب الذنوب من المسلمين، وبحثوا عن ظاهر بعض آيات القرآن وظاهر بعض الأحاديث لتأييد بدعتهم هذه، كما فعل القدرية ذلك فردوا أحاديث القدر.

ومن تزيين الشيطان لبعض الدعاة ترخصهم في الغيبة، إما بحجة المناظرة أو ادعاء أن هذا من الجرح والتعديل الذي أوجبه الفقهاء للدفاع عن شرع الله. إن علينا أن ندرك جميعاً أن هذا من عمل الشيطان، وأن نفيء إلى قول الله تبارك وتعالى: " وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينـــزع بينهم ". (الإسراء: الآية 53)

وقد زعم الناقد أن علم الجرح والتعديل يوجب تجريح المخطيء، وبهذا يجرح هو وغيره من ظنوا أنهم من المخطئين، وتجاهلوا أن هذا العلم لا يتعلق بالاجتهاد في الرأي، فذلك لا مجال للجرح فيه.

قال الإمام السيوطي (في التدريب، ص 122): " فإن كان من جَرح مجملاً قد وثقه أحد من أئمة هذا الشأن، لم يقبل الجرح فيه من أحد كائناً من كان إلا مفسراً، لأنه قد ثبت له رتبة الثقة، فلا يزحزح عنها إلا بأمر جليّ ".

قال الشيخ أحمد شاكر: " الباعث الحثيث، ص 95) معلقاً على كلام السيوطي: " وهو اختيار أبي بكر ونقله عن الجمهور، واختاره إمام الحرمين، والغزالي، والرازي، والخطيب، وصححه الحافظ أبو الفضل العراقي، والبلقيني في محاسن الإصلاح " (انتهى كلام البهنساوي).

وقال الدكتور محمد الطحان: " وأما الجرح فلا يُقبل إلا مفسراً مبين السبب، لأنه لا يصعب ذكر سببه، ولأن الناس يختلفون في أسباب الجرح، فقد يجرح أحدهم بما ليس بجارح.

قال ابن الصلاح (علوم الحديث، ص 96-97): " وهذا ظاهر مقرر في الفقه وأصوله.

وذكر الحافظ (في الكفاية، ص 108) أنه مذهب الأئمة من حفاظ الحديث ونقاده، مثل البخاري ومسلم وغيرهما.

ولذلك احتج البخاري بجماعة سبق من غيره الجرح لهم، كعكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما، وكإسماعيل بن أبي أويس، وعاصم بن علي، وعمرو بن مرزوق، وغيرهم.

احتج مسلم بسويد بن سعيد، وجماعة اشتهر الطعن فيهم، وهكذا فعل أبو داود السجستاني، وذلك دال على أنهم ذهبوا إلى الجرح لا يثبت إلا إذا فسر سببه ". (انتهى كلام الطحان)

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا الموضوع هو : هل كل إنسان يستطيع أن يقوم بممارسة الجرح والتعديل أم أن هذا الفن له رجاله وشروطه ؟

إنه لو فتح الباب على مصراعيه لقام السفيه وجرح الكريم، ولقام المنافق وطعن المؤمن، ولا نبري الجاهل منتقداً العلماء والفقهاء.

إن هذا العلم لهو من أخطر العلوم، إذ إن ديننا قد وصل إلينا عن طريق الرجال، ولو ترك الأمر دون قيود لما بقي من ديننا شيء يُطمئن له، وهذا ما حدث للرافضة، حيث جرحوا الصحابة العدول، وعدلوا المبتدعة وأهل الضلال، فوقعوا في خطأ جسيم.

إنه مما لا شك فيه أن لهذا العلم شروط يجب أن تتوافر في رجاله، ولعل من أبرزها العدالة والضبط، إذ ينبغي للذي ينبري لتجريح الرجال وتعديلهم أن يكون صاحب إيمان وتقوي وأن يكون عالماً وحافظاً.

وأمر آخر تجدر إليه وهو أن القسط مطلوب عند تقويم الرجال، فلا يجوز ذكر السيئات فقط، وإنما تضاف الحسنات إلى السيئات، فتوضع كل واحدة منهما في كفة، فإذا رجحت الحسنات تم التجاوز عن السيئات، وإذا رجحت السيئات قُدح في الرجل وذُم.

يقول الله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شُهداء بالقسط ولا يجرمنّكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبيرٌ بما تعملون ". (المائدة: الآية 8)

وهذا المنهج معلوم عند العلماء، لاسيما علماء الجرح والتعديل، ومن أراد المزيد في ذلك فليرجع إلى تراجم الرجال، كسير إعلام النبلاء للإمام الذهبي، وسيجد ذلك جلياً واضحاً وضوح الشمس في رابعة النهار، وسوف نفصل هذا الأمر ونذكر أدلته وشواهده لاحقاً بإذن الله تعالى.

خلاصة القول أن المسلم ينبغي أن يكون على حذر وهو يجرح المسلمين ويثير حولهم التهم والشبهات، وأن يربأ بنفسه من أن يحتج بما قام به علماؤنا وسلفنا في علم الجرح والتعديل، إذ إن هذا القياس فاسد لا يستقيم.

كما أن لهذا العلم شروطه ورجاله، ولا تنطبق هذه الشروط على كثير من مجرحي الثقات من الدعاة، فالحذر الحذر أيها المسلمون يرحمكم الله.

"ولا تبخسوا الناس أشياءهم"

لقد قامت السماوات والأرض على القسط، واستقام أمر الدنيا بالعدل، لذا فإن الظلم ظلمات في الدنيا والآخرة.

يخطىء كثير من الناس – وربما بعض الدعاة– إذ لا يلتفتون إلى هذه القاعدة الجليلة عند حكمهم على الآخرين، فيميلون كل الميل إلى فئة من الناس، ويرفعونها إلى درجة ربما تعلو درجة الملائكة المقربين، في حين أنهم يجورون في حكمهم على مخالفيهم، فيهبطون بهم إلى درجة دون درجة الأبالسة الشياطين، وربما يخرجونهم من دائرة الإسلام.

فلم تبقَ شبهة إلا ألصقوها بمنهج مخالفيهم، ولا تهمة إلا رموا بها رموزهم وقياداتهم، ولا منقصة إلا وصفوا بها دعوتهم.

إنهم يرون البياض كل البياض والنقاء كل النقاء في ذواتهم وفي أتباعهم ومعتقي فكرتهم، ويرون السواد كل السواد والفساد كل الفساد في مخالفيهم، وصدق الشاعر حينما قال:

ولست براد عيب ذي الود كله ولا بعض ما فيه إذا كنـــت راضيا
فعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

إن التهمة قبل أن تلصقها بشخص، والشبهة قبل أن ترمي بها منهجاً أو دعوة فإنه ينبغي أن تعرضها على هذه القاعدة، حتى لا تكون ظالماً فتبوء بإثم من ظلمتهم واعتديت عليهم.

إن الله تعالى يطالب المسلمين بأن يكونوا منصفين مقسطين، يقول الله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ". (المائدة: الآية 8)

ويقول الله عز وجل: " ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين ". (هو: الآية 85)

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: " (منهاج السنة 337/4) والكلام في الناس يجب أن يكون بعلم وعدل، لا بجهل وظلم، كحال أهل البدع.

والمقصود بالعدل في وصف الآخرين: هو العدل في ذكرى المساوىء والمحاسن، والموازنة بينهما، فإذا حكمت على شخص أو فكرة فاذكر محاسنها واذكر مساوئها.

وإنك لتجد كثيراً من يذم غيره بذكر مساوئه ويغض الطرف عن محاسنه، بسبب الحقد والبغضاء، أو لتنافس مذموم بينهما، وهذا غالباً ما يقع بين الأقران.

ولكن المنصفين هم الذين يذكرون المرء بما فيه من خير أو شر ولا يبخسونه حقه، ولو كان الموصوف مخالفاً لهم في الدين والاعتقاد أو في المذهب والانتماء.

لقد أبدع الإمام الذهبي رحمه الله حينما حرص كل الحرص على الإنصاف والعدل وهو يترجم للبلاء والأعلام في كتابه القيم " سير أعلام النبلاء "، فقد ترجم لعدد ممن اشتهر بين الناس وكانوا من أهل البدع أو الفسق أو الإلحاد، فلم يبخسهم حقهم من صفات جيدة، بل أنصفهم بذكر ما لهم وما عليهم، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

- قال عن عبد الوارث بن سعيد: " وكان عالماً مجوداً، ومن أهل الدين والورع، إلا أنه قدري متبدع " السير (301/8).
- وقال عن الحكم بن هشام: " وكان من جبابرة الملوك وفسّاقهم ومتمرديهم، وكان فارساً شجاعاً، فاتكاً ذا دهاء وعتو وظلم، وتملك سبعاً وعشرين سنة " (السير (254/8).
- وقال عن الواقدي: " والواقدي وإن كان لا نزاع في ضعفه، فهو صادق اللسان كبير القدر " السير (142/7).
- وقال عن المأمون الذي تبنى فتنة القول بخلق القرآن وامتحن علماء أهل السنة بذلك: " وكان من أكثر رجال بني العباس حزماً وعزماً، ورأياً وعقلاً، وهيبة وحلماً، ومحاسنه كثيرة في الجملة " (273/10).
- وقال في ترجمة الجاحظ الأديب المعتزلي: " العلامة المتبحر ذو الفنون..وكان أحد الأذكياء، وكان ماجناً قليل الدين، له نوادر " (256/11).

- قال عن قرة بن ثابت: " الصابيء، الشقي، الحراني، فيلسوف عصره، وكان يتوقد ذكاء " (285/13).
- وقال في ترجمة أحمد السرخسي: " الفيلسوف البارع، ذو التصانيف، أبو العباس أحمد بن الطيب..من بحور العلم الذي لا ينفع " (448/13).
- وقال في ترجمة الخياط المعتزلي: " شيخ المعتزلة البغداديين، له ذكاء مفرط، والتصانيف المهذبة..وكان من بحور العلم، له جلالة عجيبة عند المعتزلة " (220/14).
- وقال في ترجمة الجبائي: " وكان أبو علي – علي بدعته – متوسعاً في العلم، سيّال الذهن، وهو الذي ذلّل الكلام وسهّله، ويسّر ما صعب منه " (السير 183/14).
- وقال في ترجمة ابن العميد: " كان عجباً في الترسل والإنشاء والبلاغة، يضرب له المثل، ويقال له الجاحظ الثاني، وقيل: بدأت الكتابة بعبد الحميد وخُتمت بابن العميد.. وكان مع سعة فنونه لا يدري ما الشرع، وكان متفلسفاً، متهماً بمذهب الأوائل " (السير 137/16).
- وقال في ترجمة الشريف المرتضى: " وكان من الأذكياء الأولين، المتبحرين في الكلام والاعتزال والأدب والشعر، لكنه إمامي جلد، نسأل الله العفو " (السير 589/17).

وللإمام ابن تيمية كلام نفيس في هذا الباب حيث يقول: " وإنه كثيراً من ما يجتمع في الفعل الواحد، أو في الشخص الواحد الأمران: فالذم والنهي والعقاب قد يتوجه إلى ما تضمنه أحدهما، فلا يغفل عما في من النوع الآخر، وقد يمدح الرجل بترك بعض السيئات البدعية الفجورية، لكن قد يسلب مع ذلك ما حمد به غيره على فعل بعض الحسنات السنية البرية، فهذه طريق الموازنة والمعادلة، ومن سلكه كان قائماً بالقسط الذي أنزل الله له الكتاب والميزان ".

ويقول كذلك: " ولا منافاة بين أن يكون الشخص الواحد يرحم ويحب من وجه، ويعذب ويبغض من وجه آخر، ويثاب من وجه، ويعاقب من وجه، فإن مذهب أهل السنة والجماعة أن الشخص الواحد يجتمع فيه الأمران، خلافاً لما يزعمه الخوارج ونحوهم من المعتزلة، فإن عندهم أن من استحق العذاب من أهل القبلة لا يخرج من النار، فأوجبوا خلود أهل التوحيد، وقالوا: من استحق العذاب لا يستحق الثواب ".

ويقول أيضاً في كتاب " منهاج السنة النبوية " (543/4): " ومن سلك طريق الاعتدال، عظم من يستحق التعظيم، وأحبه وولاه، وأعطى الحق حقه، فيعظم الحق، ويرحم الخلق، وأن الرجل الواحد تكون له حسنات وسيئات، فيحمد ويذم، ويثاب ويعاقب، ويحب من وجه، ويبغض من وجه، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافاً للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم ".

ويقول الإمام شمس الدين الذهبي رحمه الله تعالى: " قلت: الكتابة مسلمة لابن البواب، كما أن أقرأ الأمة أبيّ بن كعب، وأقضاهم علي، وأفرضهم زيد، وأعلمهم بالتأويل ابن عباس، وأمينهم أبو عبيدة، وعابرهم محمد بن سيرين، وأصدقهم لهجة أبو ذر، وفقيه الأمة مالك، ومحدثهم أحمد بن حنبل، ولغويهم أبو عبيدة، وشاعرهم أبو تمام، وعابدهم الفضيل، وحافظهم سفيان الثوري، وأخباريهم الواقدي، وزاهدهم معروف الكرخي، ونحويهم سيبويه، وعروضيهم الخليل، وخطيبهم ابن نباته، ومنشئهم القاضي الفاضل، وفارسهم خالد بن الوليد رحمه الله ".

إنه العدل ولا شيء أجمل من العدل، وإنه الإنصاف والقسط الذي قامت به السماوات والأرض، فليحذر الذين يمارسون الظلم بأقوالهم أو أفعالهم، من حيث يشعرون ومن حيث لا يشعرون، وليعلموا أن للظالم عاقبة وخيمة، وله يوم يندم فيه، فضلاً عما يبتليه الله في دنياه قبل آخرته.

وصدق أحمد شوقي حينما قال:

وقــفَ الهُــدهُدُ في با ب سُــليمــانَ بــذِلَّهْ
قال: يا مولايَ، كن لي عِيشَتي صارت مُمِــلَّه
مــتُّ مــن حَبَّةِ بُــرٍّ أحدَثتْ في الصدر غُلَّه
لا مِــياهُ النَّيلِ تُرْويها ولا أَمــواهُ دِجْــلــه
وإذا دامــتْ قــليلاً قتلتْــني شرَّ قِتْــلــَه
فأشار الســيِّدُ العــا لي إلى مَــن كان حوْلَه
قــد جَنَى الهدهُدُ ذنْباً وأتــى في اللؤم فَعْلَه
تلك نارُ الإثمِ في الصَّدْ رِ، وذي الشكوى تَعِلَّه
مــا أرى الحــبَّة إلا سُــرِقت من بيتِ نمله
إن للــظــالم صَــدْراً يشتكي من غيــر عِله!

وأين العقل والمنطق ؟

بعض الناس لا تنفع معهم الآيات والأحاديث لإقناعهم وإزالة ما علق بهم من شبهات، ولذلك لابد من استخدام أساليب أُخر، ومن هذه الأساليب الإقناع والإفحام بالعقل والمنطق.

روي أن حصين الخزاعي لما جاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم مبعوثاً من قِبَلِ قريش فقال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا محمد إنك تسب آلهتنا وتسفِّه أحلامنا لقد كان أبوك حصينة وخير.

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: " يا حصين: دع عنك هذا، إن أبي وأباك في النار، يا حصين كم إله تعبد ؟" قال: سبعة، ستة في الأرض وواحد في السماء.

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: " إذا أصابك المرض فمن الذي تدعو ؟ قال: الذي في السماء.

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: " إذا أصابك الجوع والفقر فمن الذي تدعو ؟ " قال: الذي في السماء.

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم: " فيستجيب لك وحده وتشرك معه غيره !! ".

وهنا تنبه حصين واقتنع بالعقل والمنطق بما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم، ثم عرض الرسول صلى الله عليه وسلم عليه الإسلام، فأسلم.

ولقد انتقد أبو العلاء المعري ذات مرة الشريعة الإسلامية. كيف تحكم الشريعة الإسلامية على من يسرق ربع دينار بقطع يده، في حين أن دية اليد في الشريعة الإسلامية خمسمائة دينار ؟! فقال مبيناً هذه الشبهة:

يد بخمس مئين عسجد وديت ما بالها قطعت في ربع دينار
تناقض ما لنا إلا السكوت له ونستعيذ بمولانا من الـــنار

فرد عليه عبد الوهاب المالكي بالحجة والمنطق فقال:

قل للمعـــري عـــار أيمـــا عار جهل الفتى وهو عن ثوب التقى عار
لا تقدحن بنود الشرع عن شبه شـــرائع الدين لا تُقـــدح بأشعـــار
يد بخمس مئين عسجد وديت لكنها قطعـــت في ربـــع ديـــنـــار
عز الأمانة أغلاها وأرخصها ذل الخيـــانة فافهـــم حكمة الباري

وسأل رجل ولداً صغيراً ذكياً: مَن الذي قبْلَ الله، فأجابه الولد: عُدَّ لي من الواحد إلى العشرة لأجيبك، فلما ابتدأ الرجل يعد، قال له الولد: ماذا قبل الواحد ؟ فما استطاع الرجل أن يجيب، فأجابه الولد الذكي: قل: الله الأول والآخر، ليس قبله شيء، ولا بعده شيء، فسُرَّ الرجل من ذكائه، ومدحه على تقواه.

وسُئل الإمام علي بن أبي طالب فقيل له: كيف يحاسب الله العباد على كثرة عددهم، فقال: كما يرزقهم على كثرة عددهم.

ويروي أن أعرابياً غضب على ابنه فعيَّره بأمه وقال له: أتعصيني وتشمخ بأنفك وأنت ابن أمة ؟! فأجاب الولد: يا أبتِ هي والله خير منك، فقال الوالد: وكيف ذلك وهي أمة وأنا حرٌّ ؟ فأجاب الولد: ذلك لأنها أحسنت إليّ الاختيار فولدتني من حرّ، وأنت أسأت الاختيار فولدتني من أمة، فكان جواباً مسكتاً.

وروي أن رجلاً من المسلمين كانت عنده شبهة على عثمان بن عفان رضي الله عنه، إذ كان يتهمه بأنه يهودي، وحاول المسلمون أن يقنعوه أن عثمان مسلم، فما استطاعوا أن يزيلوا هذه الشبهة من رأسه.

فجاء له الإمام أبو حنيفة فقال له: جئتك خاطباً، قال: من ؟ فقال: ابنتك، قال: لمن ؟ فقال لرجل شريف، عفيف، صالح، منفق، كريم، صوّام النهار، قوّام بالليل، قال الرجل: فيما دون ذلك مقنع.

فقال أبو حنيفة: لكن فيه عيب واحد، قال الرجل: وما هو ؟ فقال أبو حنيفة: إنه يهودي، قال الرجل: يغفر الله لك يا أبا حنيفة، أتريد أن أزوج ابنتي من يهودي ؟!!

فقال أبو حنيفة: نعم، لقد زوج الرسول صلى الله عليه وسلم ابنته من يهودي وهو عثمان، فانتبه الرجل واقتنع، وقال: أستغفر الله، إن عثمان مسلم وليس يهودي.

ويروي كذلك أن بعض الزنادقة جاؤوا إلى أبي حنيفة يسألونه عن وجود الله، فقال لهم: دعوني فإني مفكر في أمر أُخبرت عنه ، قالوا: ما هو ؟ قال: أخبرت أن سفينة في البحر موقرة، تخترق الأمواج، تذهب وتجيء دون قائد ولا حارس، قال الزنادقة: مَن يقول هذا ؟ لا يقول هذا إلا مجنون.

فقال أبو حنيفة: إذا كانت سفينة لا تستطيع أن تسير في البحر دون حارس أو قائد، فما بالكم بهذه السماوات وهذه الأرض وهذه البحار وهذا الكون دون قائد أو حارس !! فانتبه الزنادقة وعادوا إلى ربهم، وشهدوا أن لا إله إلا الله.

إن علينا أن نتعلم فنون الحوار والإقناع، إذْ كم من فكر منحرف انتشر بذكاء أصحابه وقدرتهم على الإقناع ومحاورة الخصوم واللف والدوران، وكم من حق ضاع لأن أصحابه عجزوا عن محاورة الآخرين وإقناعهم وإزالة ما علق في أذهانهم من شبه.

إن التعرف على الحق والإيمان به لا يكفيان، وإنما نحتاج إلى فن إيصاله إلى الآخرين وإلا فسيبقى هذا الحق حبيس صدور الصالحين فحسب.

حجة لا استفزاز معها

إن طبيعة التهم والتجريح وإثارة الشبهات أنها مثيرة للأعصاب، تؤدي بالإنسان إلى القيام بممارسات لها آثار سلبية وخيمة، لذا ينبغي للمسلم أن يضبط نفسه، وأن لا يجعل هذا الاستفزاز يؤدي به إلى ما لا يُحمد عقباه، فيفقد توازنه، ولا يحقق مراده.

وفي المقابل قد يتمادى بعض الدعاة، فيقومون بردود أفعال من شأنها أن تستفز مثيري الشبهات، فتكون النتيجة أن يتسع البون بين الطرفين، وربما يتمادى مثيرو الشبهات، فيضاعفوا جهدهم، ويزيدوا من اهامهم للطرف الآخر.

إن الاستفزاز لا يعالج المشكلة، ولا يُخمد الفتنة، ولا يقضي على الشبهة، إنما الذي يقوم بذلك كله التزام الحجة والمنطق، والإقناع بهما.

لذا إذا أردت النجاح ودحض الشبهات فكن هادئاً، مؤدباً، منطقياً، وادعم جهدك بالحجة والبرهان لا بالاستفزاز والإثارة.

قال تعالى: " ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبُّوا الله عدواً بغير علم كذلك زيَّنا لكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبِّئهم بما كانوا يعملون ". (الأنعام: الآية 108)

يقول سيد رحمه الله: " إن الطبيعة التي خلق الله الناس بها، أن كل من عمل عملاً، فإنه يستحسن ويدافع عنه، فإن كان يعمل الصالحات استحسنها ودافع عنها، وإن كان يعمل السيئات استحسنها ودافع عنها، وإن كان على الهدى رآه حسناً، وإن كان على الضلال رآه حسناً كذلك، فهذه طبيعة في الإنسان.

وهؤلاء يدعون من دون الله شركاء، مع علمهم وتسليمهم بأن الله هو الخالق الرزاق، ولكن إذا سبّ المسلمون آلهة اندفعوا وثاروا.

إن سب آلهتهم لا يؤدي إلى الهدى، ولا يزيدهم إلا عناداً، فما للمؤمنين وهذا الذي لا جدوى وراءه، بل قد يجرهم إلى سماع ما يكرهون من سب المشركين لربهم الجليل العظيم ؟!! "

ويقول الإمام الشافعي رحمه الله:

إذا ما كنت ذا فضل وعلم بما اختلف الأوائل والأواخر
فناظر مـــن تناظر في سكون حليماً لا تلح ولا تكـــابـــر
يفيدك ما استفاد بلا امتنان من النكت اللطيفة والنوادر

وإياك اللجوج ومـــن برائي بأني قد غلبتُ ومن يفاخـــر
فإن الشر في جنـــبات هذا يمني بالتقـــاطع والتبدابـــر

" فليس من واجب الدعاة سب رموز الضلال وخصوم الدعوة، أو الاستهزاء بهم، ولئن كان هذا هو أسلوبهم فليس من اللائق أن يتشبه بهم الدعاة في هذه الأساليب الرخيصة وينـــزلوا إلى مستواهم، والالتزام بهذا الخلق يؤدي إلى كسب الأنصار ويجعل المكابر المعاند يصغي إذا دعوناه للحق.

والإسلام دين فيه قوة ذاتية، وبالتالي فهو لا يحتاج إلى الإرهاب والقسر والسلاسل والحديد لإقناع الناس باتباعه، فمن طبيعته أنه دين حجة ومنطق لا يخالف الفطرة أبداً ولا يصادمها.

إن الداعية الذي تستفزه كلمات الخصوم، فيفلت من لسانه ما يكون حجة عليه من خصومه، معتمداً على قاعدة " السن بالسن. العين بالعين ". لا يعلم أنه يساهم في تأصيل المنكر، وتثبيته في نفوس الخصوم، ويفقده التأييد من جمهور المستمعين إلى الطرفين.

يروي ابن قدامة المقدسي في مختصر منهاج القاصدي أن فتى مرّ يجر ثوبه بأصحاب التابعي المشهور صلة بن أشيم، ويهمون أن يأخذوه بألسنتهم أخذاً شديداً، فساءه ذلك، وأراد أن يريهم درساً عملياً في فن الإنكار فقال لهم: " دعوني أكفكم أمره، ثم قال: يا ابن أخي إن لي إليك حاجة، فقال: ما هي ؟ قال: أحب أن ترفع إزارك، فقال: نعم ونعمي عيني – أي أن أقر عينك بطاعتك واتباع أمرك – فرفع إزاره.

فقال صلة لأصحابه: هذا كان أمثل مما أردتم، فإنكم لو شتمتوه وأذيتموه لشتمكم ".

كم من شتيمة نسمعها من أصحاب الضلال بين الحين والآخر، بسبب تصرف كتصرف أصحاب صلة ".

الاختلاف في فقه الأولويات لا يفسد للود قضية

إن من أكثر أسباب النـــزاع والصراع، ومن ثم إثارة الشبهات والتراشق بالاتهامات، هو الاختلاف في تحديد الأولويات، وكذلك في التميز بين الأصول والفروع.

لذلك نجد بعض الدعاة يرون الاهتمام بجانب ما هو ألوية بالنسبة لهم يجب عدم التفريط فيه، وهذا لا ضير فيه، ولكن الأمر المؤسف أن بعضهم يقف موقفاً عدائياً تجاه كل من لا يرى رأيه هذا، فيتهم المخالف بقصور في الفهم، وربما في الإيمان والعقيدة.

والأمر الآخر الذي يعد سبباً رئيساً في بعض النـــزاعات هو أن بعض الناس يرون قضية ما هي بالنسبة لهم من أصول الدين، وأن كل من يتخذ رأياً مخالفاً لرأيهم في هذه القضية فهو بالنسبة لهم مخالفاً في الأصول، ولا يمكن الاتفاق معه، مع أن هذه القضية ربما يعدها علماء وأئمة آخرون من الفروع.

إن التشدد (غير المحمود)، وضيق الأفق وقلة الفقه هو الذي يحوّل هذه الأمور (التي لم تكن تسبب نـــزاعاً وفرقة بين السلف) إلى قضايا نزاعية تُفقد بعضهم أدنى معاني الإخوة في الله، بل ربما تفقدهم الخلق الإسلامي فضلاً عن الذوق الإسلامي.

ولنضرب مثالاً على قضية سببت اليوم نزاعاً بين بعض الدعاة، واعتبرها بعضهم قضية أصولية لا يمكن قبول الخلاف فيها.

ولعل من أبرز هذه القضايا هي قضية التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم التي اعتبرها بعض الدعاة من أصول العقيدة وليست من فروعها، وترتب على ذلك اتهام المتوسل بالنبي صلى الله بأنه منحرف في عقيدته، ضال مضل.

في حين أن هذه القضية (رغم قناعتنا أن الأولى والأحوط والأصوب هو التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة لا بالذوات) هي من المسائل الخلافية التي يسوغ فيها الخلاف، فهي كما يرى مجموعة من كبار الأئمة والعلماء أنها من فروع الدين وليست من أصوله، بل جوّز ذلك الإمام أحمد بن حنبل (في رواية له) والعز بن عبد السلام، والإمام الشوكاني، وغيرهم.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: " قولهم في الاستسقاء لا بأس بالتوسل بالصالحين، وقول الإمام أحمد يتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم خاصة مع قولهم إنه لا يستغاث بمخلوق، فالفرق ظاهر جداً، وليس الكلام فيما نحن فيه، فكون البعض يرفض التوسل بالصالحين، وبعضهم يخصه بالنبي صلى الله عليه وسلم، وأكثر العلماء ينهي عن ذلك ويكرهه، فهذه المسائل من مسائل الفقه، ولو كان الصواب عندنا قول الجمهور إنه مكروه، فلا ننكر على من فعله ".

ويقول الشيخ ناصر الدين الألباني في تحقيقه لأحاديث شرح الطحاوية (ص 55، ط 4): " فهذه سبع مسائل هامة كلها في العقيدة إلا الأخيرة منها وهي كراهة التوسل بحق الأنبياء وجاههم ".

ويقول كذلك الألباني في كتابه التوسل أنواعه وأحكامه (ص 74): " فمن رأى أن توسل الأعمى كان بذاته صلى الله عليه وسلم فعليه أن يقف عنده، ولا يزيد عليه، كما نقل عن الإمام أحمد والعز بن عبد السلام ".

ويذكر الإمام ابن تيمية في معرض حديثه عن التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم: " وفي الجملة فقد نقل عن بعض السلف والعلماء السؤال به (أي التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم) بخلاف دعاء الموتى من الأنبياء والملائكة والصالحين، والاستغاثة بهم، والشكوى إليهم، فهذا مما لم يفعله أحد من السلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا رخص فيه أحد من أمة المسلمين ".

ويقول الإمام ابن تيمية في الفتاوى وهو يعنف على أولئك الذين يكفرون من رأوا جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم: " وأما من قال: إن من نفى التوسل الذي سماه استعانة بغيره كفر، وتكفير من قال بقول الشيخ عز الدين (ابن عبد السلام) وأمثاله (أي الذين أجازوا التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم) فأظهر من أن يحتاج إلى جواب، بل المكفر بمثل هذه الأمور يستحق من غليظ العقوبة والتعزير ما يستحقه أمثاله من المفترين على الدين، لاسيما مع قول النبي صلى الله عليه وسلم: " من قال لأخيه:كافر فقد باء بها أحدهما ". (رواه البخاري)

مما سبق يتضح لنا أن الخلاف قد يحدث بين أهل العلم في تحديد الأولويات أو في التمييز بين الأصول والفروع، ولكنهم كانوا يتعاملون مع هذا الاختلاف بخلق المسلم الذي لا يقبل الطعن ولا التجريح ولا إثارة التهم والشبهات، فضلاً عن التفسيق والتكفير والتضليل لإخوانهم المسلمين.

إننا – نحن المسلمين – اليوم نحتاج إلى نوع من التبصر في واقعنا، ومن ثم ربطه بما كان عليه سلفنا، حتى تتسع صدور بعضنا لبعض، فتعف ألسنتنا، وتصفو قلوبنا، ويُكمِّل بعضنا بعضاً.

كلام الأقران يُطوى ولا يُروى

لقد نبه الحكماء والعلماء منذ زمن بعيد، كما أثبتت التجارب أنه لا يمكن أن يطمئن إلى كلام الأقران بعضهم على بعض لما فيه (غالباً) من حظوظ النفس والهوى، من حيث يدري الإنسان أو لا يدري.

لذا يقول الإمام السبكي في طبقات الشافعية (1/187-190): " وقد عقد الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب العلم باباً في حكم قول العلماء بعضهم في بعض، وروى بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما

أنه قال: استمعوا علم العلماء، ولا تصدقوا بعضهم على بعض، فوالذي نفسي بيده لهم أشد تغايراً من التيوس في زروبها.

وعن مالك بن دينار: يؤخذ بقول العلماء والقراء في كل شيء إلا قول بعضهم في بعض، فإنهم أشد تحاسداً من التيوس تنصب لهم الشاة الضارب، فيذب هذا من ههنا، وهذا من ههنا.

ثم قال ابن عبد البر: فمن أراد قبول قول العلماء الثقات بعضهم على بعض، فليقبل قول الصحابة بعضهم في بعض، فإن فعل ذلك فقد ضلّ ضلالاً بعيداً وخسر خسراناً مبيناً، فنقول مثلا: لا يلتفت إلى كلام ابن أبي ذئب في مالك، وابن معين في الشافعي، والنسائي في أحمد بن صالح، لأن هؤلاء أئمة مشهورون، صار الجارح لهم كالآتي بخبر غريب لو صح لتوفرت الدواعي إلى نقله.

ومن أمثلة ما قدمنا، قول بعضهم في البخاري: تركه أبو زرعة وأبو حاتم من أجل مسألة اللفظ، فيا لله والمسلمين أيجوز لأحد أن يقول البخاري متروك، وهو حامل لواء الصناعة، ومقدم أهل السنة والجماعة ".

ويقول الذهبي رحمه الله تعالى: " كلام الأقران بعضهم في بعض لا يعبأ به، لاسيما إذا لاح لك أنه لعدواة أو لمذهب أو لحسد، وما ينجو منه إلا من عصم الله، وما علمت أن عصراً من العصور سلم منه أهله من ذلك سوى الأنبياء والصديقين، ولو شئت لسردت من ذلك كراريس ".

ويقول ابن عبد البر: " إن السلف رضوان الله عليهم قد سبق من بعضهم في بعض كلام كثير، في حال الغضب، ومنه ما حمل عليه الحسد، كما قال ابن عباس ومالك بن دينار وأبو حازم، ومنه على جهة التأويل مما لا يلزم القول فيه ما قاله فيه، وقد حمل بعضهم على بعض بالسيف تأويلاً واجتهاداً، فلا يلزم تقليدهم في شيء منه دون برهان ولا حجة توجبه ".

ويقول الإمام الذهبي: " كلام الأقران إذا تبرهن لنا أنه بهوى وعصبية لا يلتفت إليه بل يُطوى ولا يُروى، كما تقرر عن الكف عن كثير مما شجر بين الصحابة وقتالهم رضي الله عنهم أجمعين.

وما زال يمر بنا ذلك في الدواوين والكتب والأجزاء، ولكن أكثر ذلك منقطع وضعيف، وبعضه كذب، فينبغي طيه وإخفاؤه، بل وإعدامه لتصفو القلوب وتتوفر على حب الصحابة والترضي عنهم.

وكتمان ذلك متعين عن العامة وآحاد العلماء، وقد يرخص في مطالعه ذلك خلوة للعالم المنصف العريِّ من الهوى، بشرط أن يستغفر لهم، كما علّمنا الله تعالى حيث يقول: " والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا

اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رؤوف رحيم " (الحشر: الآية 10)

فالقوم لهم سوابق، وأعمال مكفرة لما وقع منهم، وجهاد محاء، وعبادة مُمَحِّصة، ولسنا ممن يغلي في أحد منهم ولا ندّعي فيهم العصمة ". (انتهى كلام الذهبي)

وقد ذكر الأستاذ هشام الصيني كلاماً قيماً في تنافس الأقران، وأورد عن الإمام الذهبي العديد من النصوص حول هذا الموضوع، فكان مما قال: " إن كلام الأقران بعضهم في بعض غالباً ما يكون الحامل عليه الحسد والتنافس المذموم، سواء كان هذا التنافس في أمور الدنيا كالتجارة والمناصب العالية، أو في أمور الآخرة كطلاب العلم والعلماء والدعاة، وقلما يسلم منه أحد.

والقاعدة في هذا الأمر: أنه إذا بلغ المسلم قدحاً في إخوانه، وبان له أنه من قبيل كلام الأقران، فإنه يجب عليه أن يرده ولا يلتفت إليه.

وهذا المنهج هو الذي سار عليه السلف الصالح، ونبّهوا عليه كابن عباس رضي الله عنه ومالك بن دينار وابن عبد البر والذهبي وأمثالهم من أئمة السلف.

ومن أبرز من اتضح هذا المنهج في كتبه، الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى حيث أورد عدداً من كلام الأقران بعضهم في بعض ثم تعقبه بتعليقات جياد، ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

١. قال الذهبي في ترجمة رجاء بن حيوية: " قال مكحول: مازلت مضطلعاً على من ناوأني حتى عاونهم عليّ رجاء بن حيوة، وذلك أنه كان سيد أهل الشام في أنفسهم.
قلت (الذهبي) : كان ما بينهما فاسداً، ومازال الأقران ينال بعضهم من بعض، ومكحول ورجاء إمامان، فلا يلتفت إلى قول أحد منهما في الآخر ". (السير: 588/4)

٢. وقال أيضاً: " وأما الكلام النسائي فيه – يعني في أحمد بن صالح – فكلام موتور، لأنه آذى النسائي، وطرده من مجلسه، فقال فيه: ليس بثقة ". (السير: 83/11)
وقال في موضع آخر: " وكان سبب تضعيف النسائي له، أن أحمد بن صالح كان لا يحدث أحداً حتى يشهد عنده رجلان من المسلمين أنه من أهل الخير والعدالة، فكان يحدثه، ويبذل له علمه، وكان يذهب مذهب زائدة بن قدامة، فأتى النسائي ليسمع منه، فدخل بلا إذن، ولم يأته برجلين يشهدان له بالعدالة، فلما رآه في مجلسه أنكره، وأمر بإخراجه، فضعفه النسائي لهذا ". (السير: 12/ 167–168)

٣. وقال الحسن بن محمد بن جابر: " سمعت محمد بن يحي – الذهلي – يقول: " قال لنا لما ورد محمد بن إسماعيل البخاري نيسابور: اذهبوا إلى هذا الرجل الصالح فاسمعوا منه، فذهب الناس إليه، وأقبلوا على السماع منه، حتى ظهر الخلل في مجلس محمد بن يحيى، فحسده بعد ذلك وتكلم فيه ". (السير: 453/12، وتاريخ بغداد: 30/2)

وقال الذهبي عما حدث بين الذهلي والبخاري: " وما زال كلام كبار المتعاصرين بعضهم في بعض لا يلوى عليه بمفرده ". (السير: 285/12)

وقال السبكي: " ولا يرتاب المنصف أن محمد بن يحيى الذهلي لحقته آفة الحسد التي لم يسلم منها إلا أهل العصمة ". انظر طبقات الشافعية الكبرى (230/2)

ومن عدل الإمام البخاري رحمه الله تعالى الذي يشاد بذكره، ويحفظ له، أنه على ما كان من الذهلي، إلا أنه لم يتكلم فيه ولم يجرحه بشيء، بل أخرج له في صحيحه، وهذا خلق كريم لا يقوم به إلا النبلاء، والله يغفر لنا ولهم.

٤. وقال الذهبي في ترجمة مطين: " وكان متقناً، وقد تكلم فيه محمد بن عثمان بن أبي شيبه، وتكلم هو في ابن عثمان، فلا يعتد غالباً بكلام الأقران، لاسيما إذا كان بينهما منافسة، فقد عدّد ابن عثمان لمطين نحواً من ثلاثة أوهام، فكان ماذا ؟! ومطين أوثق الرجلين، ويكفيه تزكية مثل الدارقطني له ". (السير: 42/14)

٥. وقال في ترجمة ابن مندة: " قلت: لا نعبأ بقولك – يقصد أبا نعيم – في خصمك للعداوة السائرة، كما لا نسمع أيضاً قوله فيك، فلقد رأيت لابن منده حطاً مقذعاً على أبي نعيم وتبديعاً، وما لا أحب ذكره، وكل منهما فصدوق في نفسه، غير متهم في نقله بحمد الله". (السير: 34/17)

وما ذكر من الأمثلة السابقة إلا ليعلم القارىء أن كلام الأقران بعضهم في بعض لا يكاد يسلم منه إلا القليل، ولذلك ينبغي على المسلم إذا بلغه كلام من كلام الأقران أن ينظر فيه، فإذا تحقق أن الحامل عليه حسد ومنافسة، ولا تدعمه الحجة، أو لا فائدة في الكلام أصلاً، فعليه أن :

١. يرده ولا يقبله.

٢. أن يطويه ولا يرويه، لتصفو النفوس، ولا تحدث العداوة والبغضاء والتفرق . (انتهى كلام الصيني).

أيسلم منك الروم ولا..

أعجبني ما روي عن سفيان بن الحصين حيث يقول: " كنت جالساً عند إياس بن معاوية، فمر رجل، فنلت منه، فقال: اسكت، ثم قال لي: يا سفيان هل عزوت الروم ؟ قلت: لا، قال: هل غزوت الترك (أي التتار) ؟ قلت: لا، قال: سلم منك الروم، وسلم منك الترك، ولم يسلم منك أخوك المسلم !! قال: فما عدت إلى ذلك بعد ".

يا له من فقه عميق عند أولئك السلف الذين فقهوا حقيقة هذا الدين، فأجرى الله الخير على ألسنتهم وعقولهم وجوارحهم.

إن نفر من الناس همهم الأول، وربما الأخير، هو إثارة الشبهات والاتهامات على الصالحين والدعاة الذين خالفوهم في الرأي، فلا يُلقي أحدهم محاضرة إلا شهّر بهم، ولا يكتب كتاباً إلا تكلم فيهم، ولا يجلس مجلساً إلا غمزهم، وكأنما هدفه في الحياة هو تصيد عيوب هؤلاء الصالحين وفضحهم والتقوُّل عليهم.

في حين لا تجد هذا العداء وهذه الاتهامات موجهة إلى أعداء الله من اليهود والنصارى والشيوعيين والعلمانيين والانحلاليين والحاكمين بغير شرع الله وغيرهم.

ولو عددت الساعات التي يقضيها هؤلاء في اليوم الواحد في محاربة الدعاة إلى الله لوجدتها أضعاف الساعات التي يقضونها في محاربة أعداء الله، بل لربما تمر عليه الأيام والشهور وهو لا يحارب إلا هؤلاء الدعاة المصلحين!! فحسبنا الله ونعم الوكيل عندما تختل الأولويات وتنقلب الموازين.

إن غاية ما يريده الخصوم أن ننشغل في حرب أنفسنا، كي تخلو لهم الساحة ليفعلوا ما شاؤوا، وليفسدوا كيفما شاؤوا، فهل يفقه أحبابنا الدعاة ذلك ؟

تشبث بالمحكمات

إن الأدلة المحكمة الواضحة الدلالة هي التي يمكن أن يجتمع حولها المسلمون، في حين أن الشقاق والخلاف، ومن ثم التجريح والطعن والاتهام، يحدث غالباً بسبب الاختلاف حول المتشابهات التي لها أكثر من دلالة.

ومن هنا كره السلف رضوان الله عليهم التركيز على المتشابهات وجعلها أساساً للحوار والنقاش، لأنه لا يمكن أن يجتمع عليها المسلمون.

لذا ينبغي للمسلم أن يتقي الله فلا يخوض في المتشابهات ولا يُدخل الأمة في متاهاتها، وليعلم أن الخلاف فيها يسوغ، إذ لم يجتمع عليها السابقون من السلف، فأنى للاحقون من الخلف أن يتفقوا عليها. كما أن السلف لم يجعلوا الاختلاف فيها سبباً للفرقة والتشاحن، ولا طريقاً للطعن والتجريح وإثارة الشبهات حول المخالفين.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: " ومما يعين على الاجتماع والائتلاف، ويبعد عن الفرقة والاختلاف: التركيز على اتباع (المحكمات)، وهن أم الكتاب ومعظمه، كما ذكر القرآن الكريم، وعدم الركض وراء المتشابهات.

فاتباع المحكمات، واتخاذها الأصل والقاعدة في التفكير والسلوك من شأن الراسخين في العلم، واتباع المتشابهات من شأن الذين في قلوبهم زيغ ودخل.

وفيه قال تعالى: " هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه من ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذّكر إلا أولوا الألباب ". (آل عمران: الآية 7)

وقد روى الشيخان عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية: " هو الذي أنزل عليك الكتاب.. ." الآية، ثم قال: " فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه، فأولئك الذين سمى الله، فاحذروهم ".

وإذا تركت المحكمات فتح الباب للمراء والاختصام، ولاسيما في المسائل الدقيقة، التي حيرت العقول قديماً وحديثاً، ولا تزال إلى اليوم.

ومن ثم اشتد نكير النبي صلى الله عليه وسلم على من يضرب القرآن بعضه ببعضه، ولا يرد متشابهه إلى محكمه.

عن عبد الله بن عمرو قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال: " أبهذا أُمرتم ؟ – أو لهذا خُلقتم ؟ – تضربون القرآن بعضه ببعض! بهذا هلكت الأمم قبلكم ".

ومعنى الحديث: أن النبي صلى الله عليه وسلم من شدة غضبه احمرّ وجهه احمراراً يشبه فقء حب الرمان الأحمر في الوجه.

وقوله للصحابة: " أبهذا أمرتم – أو لهذا خلقتم ؟ " ينكر عليهم أن ينفقوا جهودهم وأوقاتهم في هذا البحث الذي لا طائل تحته، ولا ثمرة من ورائه، فما أمرهم الله بهذا، ولا خلقهم لهذا، إنما خلقهم وخلق العالم من حولهم ليبلوهم: أيهم أحسن عملاً.

وأبرز ما أنكره عليهم النبي صلى الله عليه وسلم: أنهم يضربون القرآن بعضه ببعض، وقد أنزل الله كتابه ليصدق بعضه بعضاً " ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ". (النساء: الآية 82)

وهذا يحدث غالباً من اتباع المتشابهات، التي تختلف دلالاتها، وتتعارض ظواهرها، دون أن ترد إلى المحكمات البينات، التي إذا تدبرها المنصف حسمت النـــزاع .

إن على المسلم إذا وجد نصين أحدهما محكم (واضح وبيّن) والآخر متشابه (يحتمل أكثر من معنى) فإن عليه أن يرد المتشابه إلى المحكم وأن يقيده به، إذ لا يجوز أن يترك الكلام الواضح الذي لا شك في وضوحه ويأخذ الكلام الذي يحتمل أكثر من معنى ليفسره كيفما شاء، فلربما لا يقصد المتكلم ذلك التفسير، أو يكون قد أخطأ التعبير. لذلك لابد من الاعتماد على الكلام المحكم الواضح.

ومن الأمثلة على ذلك، ما اتهم به سيد قطب رحمه الله تعالى بأنه قال بوحدة الوجود، وهذه المقولة لا شك أنها كفر وزندقة وإلحاد، وهي ضد كلمة التوحيد التي بذل سيد روحه في سبيلها.

وسبب هذا الاتهام هو عدم اتباع هذه القاعدة، إذ إن سيد قال كلاماً متشابهاً (يحتمل أكثر من معنى) في سورتي الحديد والإخلاص نتيجة استخدامه بعض الأساليب البلاغية والبيانية، ولم يكن يقصد به وحدة الوجود (وحتى يُفهم كلام سيد بدقة فلا بد للقارىء أن يكون أديباً بليغاً).

والمتشابه لا يقاوم النص الصريح القاطع من كلام سيد رحمة الله عليه حيث حارب فكرة وحدة الوجود وردّ عليها بكلام لا يحتمل إلا وجهاً واحداً، وذلك في تفسير سورة البقرة، حيث يقول: " ومن هنا تنتفي من التفكير الإسلامي الصحيح فكرة وحدة الوجود ".

ويرد كذلك الشيخ جاسم مهلهل الياسين على هذه التهمة بشيء من التفصيل فيقول: " دار حديث في هذا الموضوع حول قول سيد رحمه الله في تفسير قوله تعالى في سورة الإخلاص : " قل هو الله أحد " حيث قال: " ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها، وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه. ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله، لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله ".

وهذه العبارة على ما فيها من خفاء في المعنى وبعض الإبهام، فهي تتضمن في ذاتها الفرق بين الخالق والمخلوق، وذلك في قوله: " فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق من إرادة الله ".

ثم إن سيد قطب رحمه الله هاجم وحدة الوجود بنصوص واضحة وصريحة ، فهو يقول: " والنظرية الإسلامية: أن الخلق غير الخالق، وأن الخالق ليس كمثله شيء، ومن هنا ينتفي من التصور فكرة وحدة الوجود ".

أما قول سيد رحمه الله: " ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله، فيعني أن الموجودات كلها إنما هي من خلق الله وتنادي بأعلى صوتها على وجود الله ووحدانيته وألوهيته " حيث إنه يعقب هذه الفقرة قوله رحمه الله: " فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود انبثق عنها، وهذه درجة يرى القلب فيها يد الله في كل شيء ".

وخلاصة الأمر أن من لم يتربَّ من خلال القرآن، لا يستطيع أن يعيش مع كتابات سيد قطب رحمه الله، لذلك عليه أن ينظر في هذه القواعد التي تحميه من الزلل:

١. أن يجمع بين النصوص لسيد قطب رحمه الله، فيحمل المجمل على المفصل، والمبهم على الواضح.
٢. أن يلجأ إلى النسخ: فتفسير سورة البقرة الذي كتبه سيد قطب رحمه الله في الطبعة الثانية المحققة بعد سورة الحديد والإخلاص لأنه لم يصل إليهما في الطبعة الثانية المحققة، بل وصل إلى الجزء الرابع عشر في الطبعة الثانية.
٣. أن يرجح بين النصوص المتعارضة عند سيد قطب في كتبه، فيرجح عبارة النص " في سورة البقرة " مثلاً على إشارة النص في سورتي " الإخلاص والحديد "، ويرجح المنطوق الصريح (في مهاجمة وحدة الوجود) على المنطوق غير الصريح في السورتين السالفتين، ومثال المنطوق الصريح في سورتي البقرة والنساء قوله رحمه الله: " إن مقام العبودية غير مقام الألوهية، وإنهما متمايزان بلا امتزاج.

وفي ختام الحديث في هذه الفقرة نذكر ما قاله الدكتور عمر الأشقر في مقابلة له مع مجلة المجتمع الكويتية (العدد **411**) عن سيد قطب رحمه الله حيث قال: إن سيد قطب رحمه الله عندما اتجه إلى دراسة الإسلام كان على درجة كبيرة من الإخلاص، ولذلك وصل إلى قضايا رئيسة في المنهج السلفي مثل الفصل بين منهج القرآن والمنهج الفلسفي، وعدم خلط منابع الإسلام بغيره، والاقتصار على الكتاب والسنة، والتحاكم إلى الكتاب والسنة لا إلى الأشخاص والرجال، فهو لا يرد الآية والحديث بقول رجل أو عالم.

وسيد قطب رحمه الله اتخذ أسلوب استنباط المنهج السلفي من النصوص، ولكنه لم تتح له الفرصة أن يتدارس المنهج كما أتيحت لنا، لذلك قد تكون هناك بعض النقاط الغامضة التي اشتبهت عليه، ولو وصلت له بها دراسة واضحة لتخلص منها ولا شك، لأنه لم يكن متبعاً للهوى " (انتهى ما أورده الياسين).

"ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا"

إن المسلم مطالَب أن يخلص عمله لله تعالى، وأن يتحرى فيه الصواب، وأن يجتهد ما استطاع في أن يتعرف على الحق فيتبعه، فإن هو فعل ذلك فإنه أطاع الله تعالى إذ إنه قد فعل ما أمره الله تعالى أن يفعله، وإن أخطأ في بعض مسائل اجتهاده فهو معذور، بل ومأجور، بنص حديث الرسول صلى الله عليه وسلم الذي يرويه البخاري: " إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران وإن أخطأ فله أجر ".

لذلك يجب أن لا يتمادي المسلم في إثارة الشبهات والاتهامات على أولئك الصالحين الذين عرف الصلاح في سيرتهم بسبب اجتهاد خاطىء أو رأي مرجوح، وإنما ينبغي أن يكون سمت المسلم التماس الأعذار لإخوانه الصالحين، والدعاء والاستغفار لهم، مع اتباع الصحيح من الرأي حتى لو ذكر الثقات خلاف ذلك.

وبمعنى آخر ينبغي أن يميز المسلم بين الحق وحامله، فالحق أحق أن يتبع، أما حامل الحق فإن أخطأ فإنه لا يُتَّبع في خطئه، وإنما يُتَّبع الحق، ولكن في الوقت ذاته لا يُعنف، ولا يُبدع، ولا يُكفر، وإنما يستغفر له، ويثنى على جهاده، ويقال: هو ثقة ولكنه أخطأ في مسألة كذا وكذا، وهذا، والله، هو العدل الذي أمرنا به، وهو منهج أهل السنة والجماعة.

إن الله تعالى يقول: " لا يكلّف الله نفساً إلا وسعها. لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا. ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ربنا ولا تُحمِّلنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين ". (البقرة: الآية 286)

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (درء العقل والنقل: 2/103): " ولا ريب أن من اجتهد في طلب الحق من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم وأخطأ في بعض ذلك، فالله يغفر له خطأه، تحقيقاً للدعاة الذي استجابه الله لنبيه وللمؤمنين حيث قالوا: " ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ".

ويقول الإمام الذهبي: " ولو أنا كلما أخطأ إمام خطأ في اجتهاده في آحاد المسائل خطأً مغفوراً له، قمنا عليه، وبدَّعناه، وهجرناه، لما سلم معنا لا ابن نصر، ولا ابن مندة، ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة ".

ويقول كذلك: " ونبرأ إلى الله من الهوى والبدع، ونحب السنة وأهلها، ونحب العالم على ما فيه من الاتباع والصفات الحميدة، ولا نحب ما ابتدع فيه بتأويل سائغ، وإنما العبرة بكثرة المحاسن ".

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: " الناس قد تكلموا في تصويب المجتهدين وتخطئتهم، وتأثيمهم وعدم تأثيمهم في مسائل الفروع والأصول، ونحن نذكر أصولاً جامعة نافعة.

الأصل الأول: أنه هل يمكن كل أحد أن يعرف الحق باجتهاده الحق في كل مسألة فيها نـــزاع، وإذا لم يمكنه فاجتهد واستفرغ وسعه فلم يصل إلى الحق، بل قال ما اعتقد أنه هو الحق في نفس الأمر، ولم يكن هو الحق في نفس الأمر، هل يستحق أن يُعاقب أم لا ؟

والجواب: أنه ليس كل من اجتهد واستدل يمكنه معرفة الحق، ولا يستحق الوعيد إلا من ترك مأموراً أو فعل محظوراً.

فالمجتهد المستدل – من إمام، وحاكم، وعالم، ومناظر، ومفت، وغير ذلك – إذا اجتهد واستدل، فاتقى الله ما استطاع، كان هذا هو الذي كلفه الله إياه، وهو مطيع لله مستحق للثواب إذا اتقاه ما استطاع، ولا يعاقبه الله البتة، وهو مصيب بمعنى أنه مطيع لله ".

ويقول في موضع آخر: " ومما يتعلق بهذا الباب أن يعلم أن الرجل العظيم في العلم والدين، من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة، أهل البيت وغيرهم، قد يحصل منه نوع من الاجتهاد مقروناً بالظن، ونوع من الهوى الخفي، فيحصل بسبب ذلك ما لا ينبغي اتباعه فيه، وإن من أولياء الله المتقين.

١. طائفة تعظمه فتريد تصويب ذلك الفعل، واتباعه عليه.
٢. وطائفة تذمه فتجعل ذلك قادحاً في ولايته، وتقواه، بل في بره وكونه من أهل الجنة، بل في إيمانه حتى تخرجه عن الإيمان، وكلا هذين الطرفين فاسداً.

وقال عبد الرحمن ابن مهدي رحمه الله تعالى: لا يكون الرجل إماماً يقتدى به حتى يمسك عن بعض ما سمع.

وقد أمر الله عز وجل بالتثبيت من الأخبار فقال تعالى: " يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيَّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ". (الحجرات: الآية 6)

العبرة بكمال النهاية لا بنقص البداية

إن الإنسان لا يولد عالماً فقيهاً، وإنما يمر بمراحل عديدة حتى ينضج فكره ويستقر رأيه، وكم من أناس اقتنعوا بآراء مرجوحة وأفكار شاذة ثم تبين لهم الحق بعد ذلك فتركوا ما هم عليه، ولجأوا إلى الحق، فارتموا في أحضانه، لا يعدلون عنه، ولا يرضون بغيره.

إن الإسلام يجب ما قبله، والتوبة تجبُّ ما قبلها، والعبرة بالخواتيم وما آل إليه حال الإنسان لا ما ابتدأ به.

لذا يروي الإمام البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إنما الأعمال بالخواتيم ".

ويروي الإمام مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " يبعث كل عبد على مات عليه ".

ويروي كذلك الإمام مسلم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة ".

إن هذه القاعدة من القواعد الرئيسة التي توجه المسلم إذا ما أراد أن يتعامل مع الشبهات. إن المسلم الفطن العاقل التقي الورع يعرض كل شبهة أو تهمة على هذه القاعدة قبل أن يصدقها، وقبل أن يثيرها ويلصقها بأي شخص أو فكرة أو دعوة أو منهج.

ورحم الله الإمام ابن تيمية الذي أشار إلى هذا المعنى في كتابه منهاج السنة النبوية (412/8) فقال: " العبرة بكمال النهاية لا بنقص البداية ".

لقد ألصقت كثير من الشبهات والتهم بالعلماء والدعاة والصالحين، وربما تكون بعضها صحيحة، حيث إنه قالها أو فعلها أو اعتقد بها، ولكنه فعل ذلك في مرحلة من مراحل حياته ثم تراجع عنها لما عرف الصواب في سواها، وهذا دليل على صدق هذا الداعية وحبه للحق، ولذا فإن أمثال هؤلاء ينبغي أن نوجه لهم الثناء والمدح، لا أن نلصق بهم التهم والشبه ونكيل لهم الذم والقدح.

" وحسبنا أن نعلم أن الإمام الشافعي له مذهبان: القديم والجديد، والجديد كان لما علمه من الحق وتبين له، وبسبب نضجه في آخر عمره رحمه الله ".

وكذلك كتاب " الروح " للإمام ابن القيم رحمه الله، لما رأى بعض العلماء ما فيه من أخطاء، قالوا : لعله كتبه في أول حياته .

ولعل من أمثال هؤلاء أيضاً الأستاذ سيد قطب رحمه الله، إذ أنه تراجع عن بعض آرائه في أواخر حياته لما أعاد مراجعة الظلال، ولكن لم يمهله الأجل حتى ينهي مراجعته لهذا الكتاب القيم والكنـــز الثمين.

درء الشبهات بمنع ترويج الشائعات

إن الخطورة البالغة لا تكمن في الاستماع إلى الاتهامات والشبهات، ولا في تصديقها، وإنما تكمن في نشرها وترويجها. إن تناقل الشبهات له من الآثار السلبية ما لا يعلمها إلا الله تعالى.

إن ترويج الشبه سلاح فتاك، إذ به يُظلم كثير من الناس ويعتدى على أعراضهم، وبه تضخم الاتهامات والشبهات (لأن من طبيعة البشر أنهم يجعلون من الحبة قبة) وبه يمنع الحق من أن يصل إلى عامة الناس، وبه يرتفع السفهاء، ويحط من قدر الشرفاء، ويكثر الجهلاء، ويقل العلماء.

كما أن بترويج التهم يتفتت الصف الإسلامي، وتمزق وحدته، وبه ينفذ الشيطان إلى قلوب الدعاة والصالحين فضلاً عن عامة الناس فيزين لهم العناد والتمسك بالباطل، هذا بالإضافة إلى الضيق والعنت والعناء الذي يلاقيه المجروح المتهم.

ولخطورة هذه الشائعات وأثرها البليغ وجدنا الدول تهتم بها، والحكام يرقبونها معتبرين إياها مقياساً لمشاعر الشعب نحو النظام، صعوداً أو هبوداً.

إنه قد ثبت في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع " . (رواه مسلم)

وفي رواية: " كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما يسمع ". (صحيح الجامع الصغير)

وقد ذكر الأستاذ هشام الصيني كلاماً نفيساً في هذا الباب، فكان مما ذكر: " إن أثر الشائعات سيء جد سيء، ولكن ينتج عنها (غالباً) آثار أخرى أسوأ منها، وفي تاريخ المسلمين من الشائعات الكثيرة (التي كانت نتائجها سيئة في ظاهرها) قصص كثيرة.

منها الشائعة التي انتشرت أن كفار قريش أسلموا، وذلك بعد الهجرة الأولى للحبشة، كان نتيجتها أن رجع عدد من المسلمين إلى مكة، وقبل دخولهم علموا أن الخبر كذب، فدخل منهم من دخل، وعاد من عاد، فأما الذين دخلوا فأصاب بعضهم من عذاب قريش ما كان هو فاراً منه، فلله الأمر سبحانه وتعالى.

وفي معركة أحد، عندما أشاع الكفار أن الرسول صلى الله عليه وسلم قُتل، فتّ ذل في عضد كثير من المسلمين، حتى إن بعضهم ألقى السلاح وترك القتال ؟

وأدت الشائعات الكاذبة ضد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى تجمع أخلاط من المنافقين ودهماء الناس وجَهَلَتهم، وأصبحت لهم شوكة، وقتل على إثرها خليفة المسلمين بعد حصاره في بيته وقطع الماء عنه.

بل كانت آثار هذه الفتنة، أن قامت حروب بين الصحابة الكرام، كمعرفة الجمل وصفين، وخرجت على إثرها الخوارج والشيعة، وترتب عليها ظهور المرجعية والقدرية الأولى، ثم انتشرت البدع بكثرة، وظهرت فتن وبدع وقلاقل كثيرة ما تزال الأمة الإسلامية تعاني من آثارها إلى اليوم.

وفي تاريخ المسلمين، بل وفي سيرة الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم حادثة عظيمة لها ثقلها الكبير، ألا وهي حادثة الإفك. حادثة الإفك التي هزت بيت النبوة شهراً كاملاً، بل هزت المدينة كلها، بل المسلمين كلهم.

يقول سيد قطب رحمه الله معلقاً على هذا البحث: " هذا الحادث، الإفك، قد كلف أطهر النفوس في تاريخ البشرية كلها آلاماً لا تطاق، وكلف الأمة المسلمة كلها تجربة من أشق التجارب في تاريخها الطويل، وعلق قلب رسول صلى الله عليه وسلم وقلب زوجه عائشة التي يحبها، وقلب أبي بكر الصديق وزوجه، وقلب صفوان بن المعطل، شهراً كاملاً، علقها بحبال الشك والقلق والألم الذي لا يطاق ".

والذي ينبغي على المسلم أن يفعله عند سماعه مثل هذه الإشاعات والشبهات ما يلي:

١. أن يحرص ابتداءاً على عدم سماع ما يقوله أصحاب القلوب المريضة، وأن لا يرضى بذلك، وقد حذّر الله من ذلك فقال عن المنافقين: " ولو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سمّاعون لهم والله عليم بالظالمين ". (التوبة: الآية 47)
ولذا يقول الإمام ابن تيمية معلقاً على هذه الآية في كتابه درء تعارض العقل والنقل (105/2): " وفي المؤمنين من يقبل منهم، ويستجيب لهم، إما لظن مخطىء، أو لنوع من الهوى، أو لمجموعهما ".

٢. أن يقدم حسن الظن بأخيه المسلم، وهو الدليل الباطني الوجداني، وأن ينـــزل أخيه المسلم بمنـــزلته، وهذه هي وحدة الصف الداخلي، يقول تعالى: " لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين ". (النور: الآية 12)

٣. أن يطلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي والتثبت بالبينة والدليل: " لولا جاءو عليه بأربعة شهداء فإذْ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون ". (النور: الآية 13)

٤. أن لا يتحدث بما سمعه ولا ينشره، فإن المسلمين لو لم يتكلموا بمثل هذه الشائعات لماتت في مهدها، ولم تجد من يحيها إلا من المنافقين : " ولولا إذْ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ". (النور: الآية 16)

٥. أن يرد الأمر إلى أولي الأمر، ولا يشيعه بين الناس أبداً، وهذه قاعدة عامة في كل الأخبار المهمة، والتي لها أثرها الواقعي، كما قال تعالى: " وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم فعلمه الذين يستنبطونه منهم، ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً ". (النساء: الآية 83)

ونود أن نشير إلى أن مصدر الشبهات قد يكون من داخل الصف الإسلامي، ومن قِبَل الدعاة أنفسهم، وهو الأدهى والأمرّ، وقد يكون المصدر من أعداء الله خارج الصف الإسلامي، وهؤلاء يستخدمون (عادة) في شائعاتهم واتهاماتهم طريقين هما:

١. إنشاء وتلفيق الأكاذيب والاتهامات للعلماء والدعاة لزعزعة الثقة بهم، والانصراف عنهم، فكم من العلماء والدعاة قيل فيهم أنهم عملاء، وأصحاب مناصب ودنيا، واتهم بعضهم في عرضه وأمانته.

٢. تصيد الأخطاء العلمية والعملية، ونشرها بين الناس، وإعطائها حجماً كبيراً، فيزيدون شائعات مكذوبة على أمر صغير، كالشيطان الذي يلقي على الكاهن كلمة صحيحة،وتسعاً وتسعين كذبة ؟! ".

الشهوات مركب الشبهات

ينبغي أن يدرك المسلم العاقل الفطن أن كثيراً من الشبهات التي تثار على الدعوة والدعاة هي نتيجة خلافات بين الأفراد والفئات والجماعات.

إن ظاهر كثير من هذه الخلافات أنها على أمور علمية أو قضايا فكرية أو مسائل عقدية، ولكن باطنها وحقيقتها حب الذات واتباع الهوى الذي يعمي ويصم ويضل عن سبيل الله، وهذا ما يحدث أحياناً بين الجماعات والحركات الإسلامية.

روى الحاكم وغيره، عن زيد بن أسلم عن أبيه: أن عمر رضي الله عنه خرج إلى المسجد فوجد معاذاً عند قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم يبكي، فقال: ما يبكيك ؟ قال: حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: " اليسير من الرياء شرك، ومن عادى أولياء الله فقد بارز الله بالمحاربة، إن الله يحب الأبرار الأتقياء الأخفياء، الذين إن غابوا لم يُفتقدوا، وإن حضروا لم يُعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، يخرجون من كل غبراء مظلمة ". (رواه الحاكم في المستدرك)

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعد عبد الخميصة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعطَ سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، اشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، أو كان في الساقة كان في الساقة ". (رواه البخاري عن أبي هريرة)

" بعض الناس يدافعون عن بعض الاتجاهات الفكرية، ويبالغون في الحماس لها، وشدة الإنكار على من خالفها، ويستخدمون أقسى العبارات في الهجوم، وهم هواة أو محترفون جدد، دخلاء على أصحابها الأصليين، ولكنهم يريدون أن يثبتوا أنهم مخلصون لهذا الاتجاه، فيبدون في صورة من هو أشد حماساً من أهله، على نحو ما قيل: مَلَكيون أكثر من المِلك!

ولو أنصف الجميع لجردوا أنفسهم للحق، وأخلصوا دينهم لله، حتى يخلصهم الله لدينه. يقول تعالى: " قل إن صلاتي ونسُكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أُمرتُ وأنا أول المسلمين ". (الأنعام: الآيتان 162-163)

إن اتباع الهوى لون من الشرك، ولهذا قال السلف: شر إله عُبد في الأرض الهوى! وذلك لأنه يضل الإنسان عن الحق رغم علمه به.

يقول تعالى: " أفرأيت مَن اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكّرون ". (الجاثية: الآية 23)

وإن مما يؤسف له غاية الأسف: أن نجد بعض علماء الدين، أو بعض أفراد الجماعات الإسلامية، يتعاونون أحياناً مع جماعات علمانية صريحة في علمانيتها، ضد إخوانهم من العاملين للإسلام في جماعات تختلف معهم في المنهج أو الموقف السياسي، مخالفين بذلك توجيهات القرآن والسنة وأقوال سلف الأمة وعمل الهداة والصالحين من رجالها في مختلف الأعصار.

لقد وجد في المعارك الانتخابية – في عدد من أقطار الإسلام – من المتدينين والمنتسبين إلى بعض الجماعات الإسلامية من يعطي صوته، ومن يوصي أتباعه أن يعطوا أصواتهم، للعلمانيين الذين يرفضون شريعة الله جهرة، ويتهكمون بالدعاة إليها، ويستهزئوا بحدود الله، ولا يقبل أن يعطيها للمسلمين الملتـــزمين بالدعوة إلى الإسلام عقيدة وشريعة ومنهاج حياة، لأنهم يخالفونهم في بعض الأفكار والآراء.

فهل يمكن أن يكون وراء هذا التصرف منطق يقبله الإسلام بحال، إلا أن تكون الأهواء والخصومات ونزعات الأنفس الأمّارة بالسوء التي تتردى في هذه المهلكات، وهي تحسب أنها تحسن صنعاً ؟ نسأل الله السلامة ".

"وإن من البيان لسحراً"

إن الذي يقف متصدياً للشبهات ينبغي أن يكون بليغاً فصيحاً، ذلك " أن قوة التعبير وفصاحة اللسان وحسن البيان من أركان المناقشة الجيدة والحوار الناجح، فكم من حق ضاع لسوء التعبير عنه، وكم من باطل ظهر لأن الذي يدعو إليه فصيح بليغ.

وقد كان أمير الشعراء أحمد شوقي لا يلقي قصائده، بل يلقيها عنه سواه، لأنه لا يحسن الإلقاء، ولو ألقى هو قصيدته لذهب بشطر جمالها.

لذلك ينبغي للمحاور الجيد أن يضبط كلامه ويتقن لغته – ما أمكن – لأن الكلام المحكم الجميل، الذي يخلو من الخطأ، والذي تتضح فيه مخارج الحروف، والذي يتوالى بانتظام واسترسال وترتيب، بترك أحسن الأثر في السامع الذي يفهمه، ويجعله يحترم قائله، لأنه يراه رجلاً محيطاً بما يقول، قادراً على الإفصاح والإيضاح.

يضاف إلى هذا المعنى أن اصطياد المناسبة الملائكة لقول طرفة، أو إزجاء دعابة أو رواية نادرة، أو استحضار شاهد مناسب أو واقعة مستملحة، فضلاً عن حضور البديهة وسرعة الجوانب من أهم ما يتسلح به المحدث الناجح والمحاور البارع ".

إن الحق يحتاج إلى من يحسن حمله وإيصاله للآخرين، وإلا فلربما ضاع بسبب سوء تدبير حامليه أو قلة كفاءاتهم وإمكاناتهم.

إن مثل الأسلوب الذي يتم به تقديم الحق كمثل الماء البارد الذي لو وضع في كأس زجاجي جميل نقي فإنه يُتقبل أحسن قبول، ولكن لو وضع هذا الماء البارد النقي في إناء أو حذاء قذر فإنه يرد على صاحبه ولا يقبل منه.

لما ولي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخلافة وفدت الوفود من كل بلد، فوفد عليه الحجازيون، فتقدم غلام منهم للكلام، وكان حديث السن، فقال له عمر: لينطق من هو أسن منك.

فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين، إنما المرء بأصغريه، قلبه ولسانه، فإذا منح الله عبداً لساناً لافظاً وقلباً حافظاً فقد استحق الكلام، وعرف فضله من سمع خطابه، ولو أن الأمر يا أمير المؤمنين بالسن لكان في الأمة من هو أحق بمجلسك هذا منك.

فقال عمر: صدقت، قل ما بدا لك، فقال الغلام: أصلح الله الأمير، نحن وفد تهنئة لا وفد مرزأة، وقد أتيناك لمنّ الله الذي منَّ علينا بك، ولم يُقدمنا إليك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقد أتيناك من بلادنا، وأما الرهبة فقد أمِنَّا جورك بعدلك.

فقال عمر: عظني يا غلام، فقال الغلام: أصلح الله أمير المؤمنين، إن ناساً من الناس غرهم حلم الله عنهم وطول أملهم وكثرة ثناء الناس عليهم فزلّت بهم الأقدام فهَوَوا في النار، فلا يغرنك حلم الله عنك وطول أملك وكثرة ثناء الناس عليك فتــزل بك قدمك فتلحق بالقوم، فلا جعلك الله منهم، وألحقك بصالحي هذه الأمة، ثم سكت.

فسأل عمر الغلام عن سنّه فإذا هو ابن إحدى عشر سنة، ثم سأل عنه فإذا هو من ولد الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فتمثّل عمر عند ذلك فقال:

تعلم فليس المرء يــولد عــالماً وليس أخو علم كمن هو جاهل
فإن كبير القوم لا علم عنده صغير إذا التفت عليه المحافــل
وإن صغير القوم إن كان عالماً كبير إذا ردت إلــيه الجحافــل

خاطبوا الناس على قدر عقولهم

عندما تثار الاتهامات والشبهات يعمد بعض الدعاة إلى الرد عليها دون مراعاة المخاطب، فتكون ردودهم غير مقنعة ولا مجدية، وربما تكون غير مفهومة، فتزيد الطين بلة، وتفسد أكثر مما تصلح.

ولذلك روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: " خاطبوا الناس على قدر عقولهم أتحبون أن يكذب الله ورسوله ".

وروي أيضاً عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: " لا تكرهوا أولادكم على أعمالكم لأنهم خُلقوا لزمان غير زمانكم ".

ويُروى أن رجلاً جاء إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنه فقال له : هل للقاتل توبة ؟ فقال ابن عباس: لا، وبعد لحظات جاء رجل آخر فقال لابن عباس: هل للقاتل توبة ؟ فقال ابن عباس: نعم، فقيل لابن عباس: كيف هذا يا عباس، تقول للأول: لا، وتقول للثاني: نعم، فقال ابن عباس: وجدت الأول موتوراً وفي عينه الشر فأردت أن أمنعه عن القتل، ووجدت الثاني منكسراً فأردت أن أعينه على التوبة.

ويقول الشافعي رحمه الله:

أأنثر دُرّاً بين ســـارحة البَهْـــم وأنـــظم منـــثوراً لراعية الغنم
لعمري لئن ضُيِّعتُ في شر بلدة فلست مضيعاً فيهم غرر الكَلِم
لئن سهـــل الله العزيزُ بلطـــفه وصادف أهلاً للعلوم وللحِكَمْ
بثثتُ مفيداً واستفدتُ ودادهم وإلا فمكنونٌ لـــديّ ومُكْتـــتم
ومن منح الجهالَ علماً أضـــاعه ومن منع المستوجبين فقد ظلم

إن الداعية إذا أراد أن يحاور أصحاب الشبهات فينبغي أن يدرك أن عقول الناس " تتفاوت وكذلك أفهامهم ومستويات ثقافتهم، وأن الأدلة التي تصلح لزيد من الناس قد لا تصلح لعمرو، وطريقة المناقشة والمحاورة التي يتقبلها هذا ربما لا يتقبلها ذاك. والمحاور الفطن يعرف من يحاور، وبالتالي يعرف الطريقة التي ينبغي له أن يناقشه بها.

لذا يجب على المحاور أن يعرف مستوى الطرف الذي يحاوره، في العلم والفهم، فإن الطالب لا يخاطب كما يخاطب العالم، والكبير لا يخاطب كما يخاطب الصغير أو النظير، وعليه ألا يفترض – مسبقاً – في محاوره الذكاء فيكلمه بحيث لا يفهم، ولا الغباء فيشرح ويبين ما لا يحتاج إلى شرح وبيان.

ومن المفيد جداً في معرفة الطرف الآخر أن يسأله الإنسان أسئلة محايدة بطريقة توحي بتساوي درجة القناعة في طرفيها المتناقضين عنده، وبذلك يستطيع أن يسبر غور الطرف الآخر دون أن يستفزه.

فمثلاً: كان أحدهم يحاور رجلاً يلقاه للمرة الأولى في موضوع الحياة الحديثة ولا يعرف حقيقة موقفه منها، فقال له: الحقيقة قضية الحياة الحديثة والحكم عليها مسألة شائكة، ذلك أنها أعطتنا الكثير من جانب، وسلبتنا الكثير من جانب آخر، أعطتنا راحة ووسائل حديثة وصحة ونظافة واتصالات،وسلبتنا هدوء البال وصفاء النفس وبساطة العيش، ترى هل الصفقة، في مجموع ما أعطتنا ومجموع ما سلبتنا، كنا كاسبين فيها أم خاسرين ؟ "

كفى بالمرء إثماً أن يحدِّث بكل ما سمع

آفة بعض الناس أنهم تركوا لألسنتهم العنان، تقول ما تشاء، وتحدث بكل ما تسمع، وربما حسنت نياتهم، ولكن ساءت ألسنتهم، فأفسدوا أفعالهم، فلم تغنِ عنهم نياتهم.

كثير من الشبهات تنتشر انتشار النار في الهشيم بسبب تناقل الناس لها دون تثبت، بل إن بعض الناس يستمرىء ذلك ويطرب لأنه يجد مادة للحديث المبهر والمثير للآخرين.

لقد أبان الله تعالى في معرض الحديث عن حادثة الإفك أن مجرد التلفظ بالإفك والشبهات ونقله بين الناس أمر عظيم فقال تعالى: " إذْ تلقَّونه بألسنتكم وتقولون بأفهواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيِّناً وهو عند الله عظيم. ولولا إذْ سمعْتُموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلَّم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم ". (النور: الآيتان 15-16)

ثم وعظنا الله عز وجل وحذرنا من أن نعود في الوقوع في مثل هذا الذنب العظيم فقال: " يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ". (النور: الآية 17)

وقد بيّن سبحانه وتعالى أن مجرد أن يكون الإنسان ناقلاً للشبهة والاتهام بلا ضرورة شرعية وبلا تثبت وروية " أنه إثم " فقال سبحانه وتعالى: " إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذي تولّى كبره منهم له عذابب عظيم ". (النور: الآية 11)

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع ". (رواه مسلم)

وبوَّب الإمام مسلم رحمه الله تعالى في مقدمة الصحيح: باب النهي عن الحديث بكل ما سمع.

وأورد تحته الحديث السابق، كما أورد قول الإمام مالك رحمه الله تعالى لابن وهب: اعلم أنه ليس يسلم رجل حدّث بكل ما سمع، ولا يكون إماماً أبداً وهو يحدّث بكل ما سمع.

أبرز النقاط المشتركة

كثير من الاتهامات والشبهات تعظم وتكبر وتتفاقم بسبب سوء معالجتها والتعامل معها، ذلك لأنه ليس دائماً يكون مثير الشبهة سيء القصد خبيث الطوية، ولكن قد يكون مغروراً به أو عنده شيء من الجهل أو لديه غبش في الرؤية، فيخيل له أن بينه وبينك بون شاسع في الاعتقاد أو الفكر أو الأسلوب.

ولذا يندفع اندفاعاً كبيراً في محاربتك وإثارة الشبهات حولك، ورميك بالاتهامات التي ربما يكون بعضها حتى وأكثرها باطل.

لذلك فإن الحكمة تقتضي أن توضح لهذا الشخص (أو لتلك الفئة) أن الخلاف الذي بينك وبينه دون ما يتصور وأن ثمة نقاط التقاء كثيرة بينك وبينه.

" حين يتحدث الداعية مع مثيري الشبهات عليه أن يبدأ في حديثه من نقاط الاتفاق، فيبدأ بالمسلمات والبديهيات، فالحديث على هذا النحو من شأنه أن يطيل أمد الحوار، ويجعل بداياته هادئة من ناحية، منطقية ناحية أخرى، وهذا كله مؤشر إيجابي على احتمالات النجاح، ثم إن البدء بنقاط الاتفاق قد يفتح آفاتاً للتلاقي لم تكن واردة في الحسبان، وهذا يقلل الفجوة، ويوثق الصلة، ويجعل فرص الخير أفضل، واحتمال الشر أقل.

أما إذا بدأ الحديث بما هو موضع خلاف أو نزاع أو وجهات نظر متعارضة، فإن ذلك قد ينسف الحوار من أوله، أو على الأقل يغير القلوب، ويكدر الخواطر، ويجعل المتحاورين يفكرون بما يرد به بعضهم على بعض أكثر مما يفكرون في صحة الفكرة المطروحة، ويتنافسون في غلبة بعضهم أكثر مما يتنافسون في خدمة الهدف الذي أقيم من أجله الحوار ابتداء.

يقول دايل كارنيغي: " اجعل الطرف الآخر يوافقك الرأي وحاول أن تثنيه عن التفوه بكلمة " لا "، يقول الأستاذ أوفر ستريت في كتاب " التأثير بالسلوك البشري ": إن الجواب بالنفي لهو من أصعب العقبات التي يمكن التغلب عليها، فعندما يجيب الإنسان بـــ " لا " تفرض عليه كبرياؤه أن يبقى مصراً عليها، وقد يشعر فيما بعد أنه مخطيء لكن كبرياءه يأبى عليه الاعتراف بخطئه، وحالماً يتفوه بشيء يجب أن يحافظ عليه لذلك من المهم جداً أن نبدأ الحديث مع أي إنسان من الناحية الإيجابية ".

كثير من الاتهامات والشبهات يمكن القضاء عليها أو على الأقل التخفيف من حدتها إذا حاولت إفهام مثير الشبهات (إن لم يكن سيء النية) أن الأمر ليس كما تصور، وأن هناك نقاط التقاء كثيرة بينك وبينه، ولا يليق به أن يغفل ذلك لئلا يكون ظالماً، ولكيلا يخسر معيناً له في تحقيق أهدافه التي هي أهدافك.

والأهداف المشتركة غالباً ما تكون كثيرة، ولكن كثيراً من الناس لا يلتفتون لذلك، لذا نقول: حاول دائماً إظهار هذه النقاط المشتركة ومواضع الالتقاء، وابدأ الحوار بها.

"وشهد شاهد من أهلها"

القضاء على الشبهات والرد على مثيرها وإفحامه يحتاج إلى ذكاء وحكمة، إذ ليس كل رد مفحم، ولا كل إجابة شافية.

لذلك ينبغي أن تدرس الطرف الآخر لتتعرف على ما يحب وما يكره، ما يقتنع به وما يرفضه، ثم تختار الأسلوب الأمثل الذي يتناسب وطبيعة هذا الخصم.

ولعل من الأمور المفحمة والناجعة في القضاء على كثير من شبهات الآخرين، هو أن تنظر إلى أئمة مثير الشبهة وقدواته وكل من يحترم قولهم ويثق بكلمتهم، ثم ترد على شبهته من خلال الاستشهاد بكلام هؤلاء الثقات بالنسبة له.

إنك بفعل ذلك تستطيع (غالباً) أن تلجم لسانه، لأنه إن كابر وتمادي في تهمه فإنما هو يتهم نفسه وفئته التي يمثلها، إذ معنى ذلك بالضرورة أن الخطأ الذي وقع فيه المتهم هو نفس الخطأ الذي وقع فيه أساتذة مثير التهمة.

وهذا يعني (منطقياً) أن متبع هذا القدوة (وهو مثير الشبهة) هو أيضاً يقع في الخطأ نفسه (وربما لا يدري) أو على الأقل هو متبع لإمام عنده نفس الخطأ، فالأولى أن يتهم إمامه وقدروته قبل أن يتهم الآخرين، وهذا ما لا يستطيع فعله كثير من الناس، إلا من رحمهم الله ونجّاهم من التعصب المذموم.

لا نريد بكلامنا هذا أن نعمق التعصب المذموم، كلا والله، فإن ذلك بلاء أصيب به كثير من المسلمين، ولكن نريد بكلامنا هذا أن نسد الطريق على مروِّجي التهم والإشاعات الذين لا همَّ لهم إلا إيذاء الدعاة وتكدير صفوهم، لذا نرد عليهم بالأسلوب الذي يفهمونه.

كما أن هناك أمر آخر (وهو حق) وهو أن الدعوة الحقة والداعية الذي يبحث عن الحق، سيجد له كثيراً من الأعوان والمؤيدين في الخير، ممن سبقه أو ممن أدركه من العلماء والفقهاء والمفكرين.

لذلك لا يعني الرد على المتعصبين للمذاهب بأقوال أئمتهم، أو الرد على غيرهم بأقوال مشايخهم، بأن هؤلاء الأئمة هم أعداؤنا، كلا والله، فالإمام أبو حنيفة وأحمد والشافعي ومالك وابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب وحسن البنا وغيرهم، كل أولئك هم أئمتنا ومشايخنا، نتقرب إلى الله بحبهم.

إنه لا يجوز أن نحارب هؤلاء الأئمة، ونقف ضد أقوالهم، لمجرد أن هناك نفراً من الناس تعصَّبوا لهم، ولم يهتدوا بهديهم، فأساؤوا لإخوانهم المسلمين بدافع التعصب المذموم أو الجهل أو سوء الطوية.

وفي التوثيق لنا حجة

يجمل بمن يود لتصدي للشبهات أن " يغزو الأفكار إلى مصادرها، وأن يولي الاستشهاد والاقتباس ما يستحقان من عناية، وأن يستعين بذكر الإحصائيات التي تخدم رأيه، والمراجع التي اعتمد عليها، أو التي يمكن الاعتماد عليها في الموضوع محل البحث.

فسوق الحقائق المجردة أقل تأثيراً في النفوس من سوقها مدعمة بالشواهد المعتمدة سواء من الكتاب أو السنة أو أقوال العلماء والأئمة أو من أقوال أهل الاختصاص المعتمدين الموثوقين، أو تدعيم الكلام بذكر مرجعه من الكتب الأمهات، أو الموسوعات المشتهرات.

ويحسن كذلك أن يترك النقول الضعيفة، والحجج الواهية، فدليلان لا يمكن الرد عليهما أفضل من سوقهما مع ثلاثة أدلة أخرى يمكن الأخذ والرد فيها، إذ ربما يستغلها الطرف الآخر فيضعف الفكرة ويسيء إلى موقف صاحبها، خاصة إذا كان في محفل من الناس.

كذلك نوصي أن يكون للدعوة أو لبعض الدعاة أرشيف متكامل يجمع فيه ويوثق كل ما يمكن الاستفادة منه في دحض الشبهات والرد عليها، سواء من مقالات أو دراسات أو أبحاث أو مواقف موثقة أو أقوال للأئمة الكرام الموثوق بهم، حتى يكون ذلك رصيداً يمكن الاستفادة منه عند الحاجة.

إن الخطأ الذي يقع فيه ثلة من الدعاة والدعوات أنها تنتظر حتى تفاجأ بتهمة هي بريئة منها ثم تبدأ البحث في كيفية الرد عليها، فيشق عليها ذلك، لذلك ينبغي عليها أن تدرس الواقع الذي تعيش فيه، وأن تستشرف المستقبل ثم تخطط لما ينفعها ويسدد خطاها وينجيها من الوقوع في كثير من المزالق والأزمات.

لكل مقام مقال

نعم، لكل مقام مقال، ولكل حادثة حديث، وليس كل ما يعرف يقال، فما يصلح للعلماء قد لا يصلح للجهلاء، وما يصلح للخاصة ربما يضر لو أخبر به العامة، وما يمكن قوله في بلد قد يصعب ذكره في بلد آخر.

فالناس تختلف عقولهم واهتماماتهم واحتياجاتهم ومنطلقاتهم الفكرية والاجتماعية والعقدية والسياسية.

لذلك على العاقل أن يحسن الأسلوب الذي يتعامل به مع الشبهات والاتهامات، وأن يختار لكل صنف من الناس ما يناسبهم، ولكل حال ما يوافقه، حتى يستطيع أن يوفق في دحض هذه الشبهات وإقناع الناس بزيفها وهشاشتها.

إن " قل كلمتك وامش " لا تحقق الثمرة المرجوة، بل ينبغي أن يختار المرء الكلمة المناسبة، ذات الأثر المناسب، وأن يطمئن أنها لن تكون وبالاً عليه ولا على دعوته.

إن للناس مداخل عدة، وهذه المداخل تتبدل وفق الظروف والأحوال، فمدخل الإنسان في حال الفرح يختلف عن مدخله في حال الحزن والترح، ومدخله وهو غني يختلف عن مدخله وهو فقير، وكذلك مدخله وهو عالم غير مدخله وهو جاهل.

فلو أنك حاولت تفنيد شبهة أمام عالِم بأسلوب عاطفي لربما ردك ولم يلتفت إليك، في حين لو أنك استخدمت أسلوباً منهجياً أو فلسفياً أمام كثير من الجهلاء لقالوا: لماذا تتفلسف ؟ قل كلاماً يمكن فمهه، وأيضاً لما قبلوا حجتك.

فاختر لكل إنسان ما يناسبه من مداخل تستطيع بها أن تغير قناعته، لتصل به إلى الحق، وتخلصه من أوهام الشبهات والاتهامات.

يقول دايل كارنيغي: " من هواياتي أن أصطاد السمك، وبمقدوري أن أجعل الطعم الذي أثبته في السنارة أفخر أنواع الأطعمة، لكني أفضل استعمال طعوم الديدان على الدوام، وذلك أنني لا أخضع في انتقاء الطعوم إلى رغبتي الخاصة فالسمك هو الذي سيلتهم الطعم وهو يفضل الديدان، فإذا أردت اصطياده قدمت له ما يرغب فيه ".

وسئل كذلك لويد جورج السياسي البريطاني عما أبقاه في سدة الحكم مع أن معاصريه من رجال الدول الأوربية الأخرى لم يستطيعوا الصمود مثله فقال: " إنني ألائم بين ما أضعه في السنارة وبين نوع السمك ".

وأراد أحد الشعراء أن يحمل عجلاً له على الدخول في الحظيرة، فجعل يجره من رأسه بينما يدفعه ولده من الخلف، لكن العجل أبىأن يتحرك، لقد ثبت بعناده، فشاهدت زوجة الشاعر هذا المنظر فقدمت، ثم تقدمت أمام العجل، ووضعت أصبعها في فمه، فأخذ هذا العجل يمص الأصبع مغتصباً وهو يخطو وراءها حتى دخل الحظيرة .

فقسى ليزدجروا

إن الأصل في دعوة الحق أن تكون بالرفق واللين، يقول تعالى: " فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظّاً غليظَ القلبِ لانفضّوا من حولك ". (آل عمران: الآية 159)

ومع أن الأصل في دعوة الناس هو الرفق والمداراة، إلا أن بعض أنواع الناس لا ينفع معه الرفق، بل إن الرفق يجعله يتمادى في منكره، ويجعله يتجرأ ويستخدم يده لضرب صاحب الإنكار، وربما أثر إعلانه بمنكره على بعض الضعاف فيجعلهم يتشجعون لفعل المناكر جهاراً أمام الناس، خاصة إذا كان منكره يحمل طعناً في العقيدة.

وفي مثل هذا الوضع لابد لصاحب الإنكار أن يقوم بزجر صاحب المنكر، وأن يريه غضبه على ذلك، حتى يكون هذا سبباً لردعه في التمادي في منكره.

يقول الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله (الآداب الشرعية 214/1): " والناس يحتاجون إلى مداراة ورفق، والأمر بالمعروف بلا غلظة، إلا رجل معلن بالفسق، فقد وجب عليك نهيه وإعلامه، لأنه يقال: ليس لفاسق حرمة، فهؤلاء لا حرمة لهم ".

وصدق الشاعر حينما قال:

فقسى ليزدجروا ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم

أراد أحد السفهاء الجهّال أن يُعيِّر أحد الأدباء العلماء بأخيه فقال له: ألم تعلم بأن أخاك كان خادماً عند أبي ؟ فأجابه الأديب في الحال: نعم، لا أنكر أن أخي كان خادماً عند والدك، ولكن حفظ له ماله وشرفه وسمعته، أما أنت فلم تحفظ له ثروته ولا كرامته، فأيكما أفضل ؟ فأخجله وأسكته.

وتجاسر ولد قبيح، عديم التربية والتهذيب، على رجل عاقل مهذّب وشتمه وعبره بفقره، وغنى والده.

فقال له: نعم، إن والدي لم يترك لي شيئاً، وكان حكيماً شريفاً، ومات شهيداً، أما والدك فكان غنيّاً، وترك لك ولإخوتك أطياناً وعقاراً، ولكن، بالله عليك، قل لي: هل ترك فيكم رجلاً رشيداً ؟ ثم أنشد يقول:

لا تقل أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

ثم قال:

ما بقومي شرفت، بل شرفوا بي وبنفسي ارتفعت لا بجدودي

وروي أن شريك بن الأعور دخل على معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه، وكان شريك دميماً، فقال له معاوية: إنك لدميم والجميل خير من الدميم، وإنك لشريك وما لله من شريك، وإن أباك الأعور والصحيح خير من الأعور، فكيف سُدْتَ قومك ؟!

فقال شريك: وإنك لمعاوية وما معاوية إلا كلبة عوت فاستعوت الكلاب، وإنك لابن صخر والسهل خير من الصخر، وإنك لابن حرب والسلم خير من الحرب، وإنك لابن أمية وما أمية إلا أمة، فكيف صيّروك أمير المؤمنين ؟ ثم أنشد:

أيشتمني معاوية بن حـــرب وسيفي صارم ومعي لساني

وحولي من بني عمي ليوث ضراغمة تمش إلى الطعان

فقال معاوية: كفى كفى يا شريك.

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب

أخطر ما في إثارة الشبهات أنها تؤدي إلى تمزيق الصف الإسلامي (خاصة إذا كان المثير داعية والمتهم داعية أيضاً) وإلى تعكير صفو القلوب.

إن أسلوب الاتهام وإثارة الشبهات هو من الأساليب التي يطرب لها الشيطان ويفرح، ذلك لأنه مجال خصب لزرع الكراهية والحقد والحسد والبغضاء في نفوس المسلمين.

لذا يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب، ولكنه لم يسأس من التحريش بينهم ". (رواه مسلم)

ومن أهم النصائح التي توجه للمسلم إذا ابتُلي بتهمة أو أُثيرت حوله شبهة أن يحتسبها لله تعالى، إذ إنها ابتلاء، والمسلم مأجور إذا صبر على الابتلاء، مصدقاً لحديث المصطفى صلى الله عليه وسلم: " إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط ". (رواه الترمذي)

ولعل من مستلزمات الاحتساب والصبر أن يجاهد الإنسان نفسه، وأن يغفر لمن ظلمه، كما قال تعالى: " ولَمَنْ صبر وغفر إن ذلك لِمَنَ عزم الأمور ". (الشورى: الآية 43)

إن المسلم يربي نفسه كي يكون سليم القلب تجاه إخوانه المسلمين مهما صنعوا به، والأدلة التي تحث على ذلك كثيرة منها، على سبيل المثال لا الحصر، ما يلي:

يقول تعالى: " والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربَّنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا ربنا إنك رءوف رحيم ".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ " قالوا: بلى، قال: " إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هو الحالقة، لا أقول تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين ". (رواه الترمذي)

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: " لا تقاطعوا ولا تدابروا، ولا تباغضوا ولا تحاسدوا، وكونوا عباد الله إخواناً، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث ". (رواه البخاري)

وفي رواية الإمام أبي داود: " لا يحق لمؤمن أن يهجر مؤمناً فوق ثلاث، فإن مرت به ثلاث، فليلقه فليسلم عليه، فإن رد عليه السلام فقد اشتركا في الأجر، وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم، وخرج المسلم من الهجرة ".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تعرض الأعمال في كل اثنين وخميس، فيغفر الله عز وجل في ذلك اليوم لكل امرىء لا يشرك بالله شيئاً، إلا امرأ كانت بينه وبين أخيه شحناء، فيقول: اتركوا هذين حتى يصطلحا ". (رواه مسلم)

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم ينهي أن يُبلِّغ عن أصحابه ما يسوؤه، قال: " لا يبلغني أحد منكم عن أحد من أصحابي شيئاً، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر ". (رواه أبو داود)

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة " فطلع رجل من الأنصار، تنطف لحيته من وضوئه قد علق نعليه بيده الشمال. ولما كان الغد قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى.

فلما كان اليوم الثالث قال النبي صلى الله عليه وسلم مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى، فلما قام النبي صلى الله عليه وسلم تبعه عبد الله عمرو – تبع الرجل– فقال: إني لاحيت (خاصمت) أبي، فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني إليك حتى تمضي فعلت! قال: نعم.

قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تعار – تقلب في فراشه – ذكر الله عز وجل حتى ينهض لصلاة الفجر. قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً.

فلما مضت الليالي الثلاث وكدت أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله، لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لك – ثلاث مرات – " يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة " فطلعتَ أنت الثلاث المرات فأردت أن آوي إليك، فأنظر ما عملك فأقتدي بك، فلم أرك عملتَ كبير عمل!! فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال: ما هو إلا ما رأيت.

قال عبد الله: فلما وليت دعاني فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه، فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك !! (رواه أحمد)

وفي رواية البزار: ما هو إلا ما رأيت يا ابن أخي، إلا أني لم أبت ضاغنا على مسلم.

وقال أبو الدرداء: " إذا تغير أخوك، وحال عما كان عليه، فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوج مرة ويستقيم أخرى ".

وقال إبراهيم النخعي: " لا تقطع أخاك، ولا تهجره عند الذنب بذنبه، فإنه يرتكبه اليوم ويتركه غداً ".

وقال أيضاً: " لا تحدثوا الناس بزلة العالم، فإن العالم يزل الزلّة ثم يتركها ".

ويقول الشاعر:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلا من طبعه الغضب

ويقول آخر:

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض عن شتم اللئيم تكرما

وقال ثالث:

خذ من خليلك ما صفا ودع الذي فيه الكدر

فالعمر أقصر من معـــا تبة الخليل على الغيـــر

نعم، إنه الخلق الرفيع الذي ينبغي للمسلم أن يتمثل به، فالمسلم الداعية أرفع من الحقد والكراهية، لاسيما إذا أيقن أن العاقبة للمتقين، وأنه لا عدوان إلا على الظالمين، وأن هذا الدين هو دين الله، وهو الذي حفظه ويحفظه، وأن الزبد سيذهب جفاء، وأن الحق باق، والباطل زاهق، وأن الله أعلم حيث يجعل رسالته ودعوته.

هذه معان كريمة سامية، إذا استحضرها المسلم اطمأن ورضي بقضاء الله وعفا عمن ظلمه واعتدى عليه، فهو مأجور والظالم المعتدي مأزور، وهل يريد الداعية من دعوته إلا رضا مولاه والجنة، وهذا حاصل بإذن الله تعالى إن أخلص عمله لله وأصاب هدي نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ثم صبر في سبيل الله دينه، وغفر بعد ذلك ابتغاء مرضات ربه.

ولنا في السابقين عبرة

الاطلاع على هدي السلف مواقفهم فيه خير كثير، إذ تصفو به القلوب، وتنضج به العقول، وتسمو به النفوس، ويتهذب به الخلق.

إن هذه النماذج النادرة ينبغي أن يرجع إليها الدعاة بين الفينة والأخرى ليتعرفوا على هديهم وسيرتهم وكيف يفكرون ويتعاملون وهم يمضون في طريقهم إلى الله تعالى.

وصدق الشاعر:

اقرؤوا التاريخ إذ فيه العبر ضلّ قوم ليس يدرون الخبر

يقول الدكتور يوسف القرضاوي: " ومما يساعد على التسامح وتبادل العذر فيما اختلف فيه: الاطلاع على اختلاف العلماء، ليعرف منه تعدد المذاهب، وتنوع المآخذ والمشارب، وأن لكل منهم وجهته وأدلته التي يستند إليها ويعول عليها، وكلهم يغترف من بحر الشريعة، وما أوسعه.

ومن أجل ذلك أكد علماؤنا فيما أكدوه وجوب العلم باختلاف الفقهاء كوجوب العلم بما أجمعوا عليه، فإن اختلافهم رحمة، واتفاقهم حجة، وفي هذا قالوا: من لم يعرف اختلاف العلماء فليس بعالم، وقالوا: من لم يعرف اختلاف الفقهاء لم تشم أنفه رائحة الفقه!

وآفة كثير من الدخلاء على العلم أنهم لا يعرفون رأياً واحداً، ووجهة واحدة، أخذوا عن شيخ واحد، وانحصروا في مدرسة واحدة، ولم يتيحوا لأنفه لأنفسهم أن يسمعوا رأياً آخر، أو يناقشوا وجهة نظر مخالفة، أو يحيلوا أنظارهم في أفكار المدارس الأخرى.

والعجيب في أمر هؤلاء أنهم ينهون عن التقليد، وهم في الواقع مقلدون، رفضوا تقليد الأئمة القدامي، وقلدوا بعض المعاصرين، وأنهم ينكرون المذاهب وقد جعلوا من آرائهم مذهباً خامساً، يقاتلون دونه، وينكرون على من خالفه!

وأنهم ينكرون علم الكلام القديم وما فيه من جدليات ومزايدات، وقد أنشأوا بأقاويلهم علم كلام جديداً، لا يهتم بغرس اليقين في القلوب بقدر ما يغرس في العقول حب الجدل في أمور العقيدة.

وكم من دارس منصف رجع عن تعصبه وغلوائه حين عرف في المسائل أقوالاً عدة لعلماء معتبرين.

ويقول بعض الإخوة: إن الرأي الذي ينفرد به فقيه أو اثنان خلافاً لجمهور الأمة يجب ألا يعتد به ولا يعول عليه.

وقال غيرهم: إن ما خالف المذاهب الأربعة التي تلقتها الأمة بالقبول، يجب أن يرفض ولا يقام له اعتبار.

والحق أن هذا كله لا يقوم عليه دليل من كتاب أو سنة.

فالاجماع الذي هو حجة – على ما قيل فيه – هو اتفاق جميع المجتهدين على حكم شرعي، ولم يقل أحد: إنه اتفاق الأكثرية أو الجمهور، فالأمر ليس أمر تصويت بالعدد.

صحيح أن لرأي الجمهور وزناً يجعلنا نمعن النظر فيما خالفه، ولا نخرج عنه إلا لاعتبارات أقوى منه، ولكنه ليس معصوماً على كل حال.

وكم من صحابي انفرد عن سائر الصحابة برأي لم يوافق عليه سائرهم، ولا يضره ذلك.

وكم من فقهاء التابعين من كان له رأي خالف آراء الآخرين، ولم يسقط ذلك قوله، فالمدار على الحجة لا على الكثرة.

وكم من الأئمة الأربعة من انفرد عن الثلاثة بآراء وأقوال، مضى عليها أتباع مذهبه، مؤيدين ومصححين.

ومذهب أحمد بن حنبل – وهو المذهب المشهور باتباع الأثر – قد عرف بـــ (مفرداته) التي نظمها من نظم، وألف فيها من ألف، وغدا من المعروف المألوف أن يقرا الباحث فيه هذه العبارة: وهذا من مفردات المذهب.

والمذاهب الأربعة – على ما لها من اعتبار وتقدير لدى جمهور الأمة – ليست حجة في دين الله، إنما الحجة ما تستند إليه من أدلة شرعية، منقولة أو معقولة.

وما يقال عن بعض الآراء: إنها شاذة أو مهجورة أو ضعيفة، فهذا لا يؤخذ إلى إطلاقه وعمومه، فكم من رأي مهجور أصبح مشهوراً، وكم من قول ضعيف في عصر جاء من قوّاه ونصره، وكم من قول شاذ في وقت هيأ الله له من عرف به وصححه وأقام عليه الأدلة، حتى غدا هو عمدة الفتوى.

وحسبنا هنا آراء شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، التي لقي من أجلها ما لقي في حياته، وظلت بعد وفاته قروناً، وظل من العلماء من يعتبرها خرقاً للإجماع، حتى جاء عصرنا الذي وجد فيها سفينة الإنقاذ للأسرة المسلمة من الدمار والانهيار.

كما أن الاعماد على حديث واحد أو بعض الأحاديث لإصدار الحكم الشرعي أمر لا يستقيم، فمثلاً في كل من دلالة الأمر والنهي سبعة أقوال على ما ذكر الأصوليون في مبحثَي الأمر والنهي.

وقد رأينا الصحابة يسمعون من الرسول صلى الله عليه وسلم أوامر، ومع هذا يترخصون في تركها، لعلمهم أنها لم تكن عازمة جازمة، فإذا ثبت لهم ذلك باللفظ أو القرينة كانوا أسرع الناس إلى تنفيذها.

في أحد الأسفار للغزو، كانوا صائمين في رمضان، فأمرهم بالإفطار، فأفطر بعضهم وصام بعضهم، متأولين أنه إنما أراد الرفق بهم، ولم يكن في الأمر ما يدل على الإلزام الجازم، فلما اقتربوا من التلاحم مع العدو، قال لهم: " إنكم مصبحو عدوكم، والفطر أقوى لكم، فأفطروا " فكانت عزمة، فأفطروا.

ورأيناهم في حديث: " إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم واصبغوا " يرون الأمر هنا لمجرد الإرشاد أو الاستحباب، فلهذا امتثل بعضهم وصبغ، وبعضهم لم يصبغ، ومنهم من صبغ بالحناء، وبغيرها، ومنهم من صبغ بالسواد.

وكذلك حديث: " لا تسم ابنك ولا غلامك نافعاً ولا يساراً ولا رباحاً.. " إلخ، رأيناهم يسمون نافعاً ويساراً، كما هو ثابت في أسماء التابعين، مثل نافع مولى ابن عمر، وسليمان بن يسار، وعطاء بن رباح، وغيرهم.

ولهذا رأينا إماماً مثل ابن تيمية رحمه الله يحمل حديث: " من مس فرجه فليتوضأ " على الاستحباب. وكذلك الوضوء من أكل لحوم الإبل، يراه للاستحباب لا للوجوب، خلافاً لمذهب إمامه أحمد في المثالين " (انتهى كلام القرضاوي).

بعد هذا الكلام الذي ذكره الدكتور القرضاوي، وهذا التوضيح اللطيف، لا أظنني بحاجة إلى مزيد من التعليق، سوى مطالبة إخواننا الصالحين أن يفتحوا عقولهم، وأن يقرأوا تاريخهم، وأن يرجعوا إلى هدى أسلافهم، وصدق من قال:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جرير المجامع

"ولا تيأسوا من روح الله"

إن من آثار الشبهات على الدعاة وعامة المسلمين أنها تُدخل في قلوبهم اليأس والقنوط من رحمة الله أو من نصره لدعوته، فتكون النتيجة أن هؤلاء الدعاة والمسلمين يركنون إلى الانزواء والفتور.

إن الله تعالى نهى عن اليأس فقال جل وعلا: " ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييئس من روح الله إلا القوم الكافرون ". (يوسف: الآية 87)

يقول سيد قطب رحمه الله تعالى: " والذي ييأس في الضر من عون الله يفقد كل نافذة مضيئة، وكل نسمة رخية، وكل رجاء في الفرج، ويستبد به الضيق، ويثقل على صدره الكرب، فيزيد هذا كله من وقع الكرب والبلاء..ألا إنه لا سبيل إلى احتمال البلاء إلا بالرجاء في نصر الله، ولا سبيل إلى الفرج إلا بالتوجه إلى الله، ولا سبيل إلى الاستعلاء على الضر والكفاح للخلاص إلا بالاستعانة بالله، وكل يائسة لا ثمرة لها ولا نتيجة إلا زيادة للكرب ومضاعفة الشعور به ".

يقول الشاعر:

يا صاحب الهم إن الهم منفرج أبشـــر بخيـــر فإن الفـــارج الله
اليأس يقطع أحياناً بصاحبـــه لا تـــيأســـن فإن الكـــافي الله
إذا بليـــت فثق بالله وارض به إن الذي يكشف البلوى هو الله
الله يحدث بعد العسر ميسرة لا تـــجزعن فإن الصـــانع الله
والله ما لك غير الله من أحد فحسبك الله فـــي كـــل لك لله

كان الرسول صلى الله عليه وسلم يربي صحابته على التفاؤل وعدم اليأس مهما أُثيرت حول دين الله الشبهات.

يروي ابن هشام في سيرته أن عدي بن حاتم لما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم قبل إسلامه قال له النبي صلى الله عليه وسلم: " لعلك يا عدي إنما يمنعك من الدخول في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف، ولعلك إنما يمنعك من الدخول أنك ترى الملك والسلطان في غيرهم، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم، قال عدي: فأسلمت ".

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: " والذي نفسي بيده ليفرجن الله عنكم ما ترون من الشدة، وإني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمناً، وأن يدفع الله إلى مفاتيح الكعبة، وليهلكن الله كسرى وقيصر، ولتنفقن كنوزهما في سبيل الله ". (رواه البخاري ومسلم)

وعن عبد الله مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " الطيرة شرك " قالها ثلاثاً.

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتفاءل ولا يتطير، وكان يحب الاسم الحسن ".

وما أروع ما ترنّم به سيد قطب رحمه الله حينما قال:

أخي هل تراك سئمت الكفاح وألقيت عن كاهليك السلاح
فمن للضحايا يواسي الجراح ويرفع رايتها من جديد
أخي إنني ما سئمت الكفاح ولا أنا ألقيت عني السلاح
وإن طوقتني جيوش الظلام فإني على ثقة بالصباح
وإني على ثقة من طريقي إلى الله رب السنا والشروق
فإن عافني الشوق أو عقني فإني أمين لعهدي الوثيق
أخي فامضِ لا تلتفت للوراء طريقك قد خصبته الدماء
ولا تلتفت هاهنا أو هناك ولا تتطلع لغير السماء
أخي أنت حر وراء السدود أخي أنت حر بتلك القيود
إذا كنت بالله مستعصماً فماذا يضيرك كيد العبيد

أخي ستبـــيت جيـــوش الظلام ويشرق في الكون فـــجر جديد
فأطلـــق لروحـــك إشـــراقها ترى الفجـــر يـــرمقنا من بعيد

إن الشبهات والتهم والأباطيل لا تنتهي، والصراع بين الحق والباطل مستمر إلى قيام الساعة، والمؤمن تجاه ذلك لا يعرف اليأس ولا القنوط، إن له غاية عظمى وهدفاً سامياً ألا وهو رضا الله والجنة، وصدق الله حيث يقول الله: " ولا تهنوا في ابتغاء القوم. إن تكونوا تألمون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً ". (النساء: الآية 104)

الوصايا العشر

١. ألفت انتباه مثير التهمة إلى ضرورة أن يكون دقيقاً في تهمته، بحيث لا تقبل منه كلاماً عاماً، وإنما طالبه بأن يأتي باسم الكتاب ورقم الصفحة ونص الكلام بالحرف الواحد، مع ضرورة أن يأتيك بما قبل وما بعد النص الذي استند عليه في إثبات تهمته.

٢. لا تحاور إلا بعد التحضير لموضوع الحوار، والتسلح بالعلم، مع حفظ ما تحتاج حفظه من نصوص وآراء، ولا بأس أن تؤجل الحوار في بعض المسائل التي لم تستعد لها، وحجتك في ذلك الرغبة في دراسة الموضوع، ولا تخجل أن تقول لشيء لا تعلمه: لا أعلم.

٣. التزم الحق ولا تتعصب، وإذا تأكد لك خطأ فرد أو فئة فلا تدافع عن الخطأ، بل اعترف به، وهذا الأمر طالب به الطرف الآخر أيضاً.

٤. طالب الطرف الآخر أن يكون عادلاً ومنصفاً، وذلك لقوله تعالى: " يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شُهداء بالقسط ولا يجرمنَّكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون " (المائدة: الآية 8)، وذكّره دائماً أن يزن الناس بميزان الحسنات والسيئات، وأن الماء إذا بلغ القلتين لم يحمل الخبث، وأن الكمال لله والعصمة لأنبيائه.

٥. طالب الطرف الآخر أن يحسن الظن بإخوانه المسلمين، وأن يربأ بنفسه على الاستطالة في عرض أخيه المسلم، لاسيما الوقوع في تكفيره وتفسيقه، وطالبه كذلك بأن يفرق بين الخطأ المقصود المتعمِّد وبين خطأ المجتهد الحريص على تحري الحق.

٦. طالب الطرف الآخر أن يفرق بين خطأ الفرد وخطأ المنهج، فالفرد مهما بلغ فهو معرَّض للخطأ، لذا فالتحاكم إلى المناهج أولى من التحاكم إلى مواقف الأفراد، ومن هنا لا تضيِّع وقتك في الحديث عن خطأ الآخرين.

٧. ذكّر الطرف الآخر بالقواعد الذهبية السبع التالية:

- لا إنكار على مجتهد ولا مختلف فيه.
- درء أكبر المفسدتين وارتكاب أخف الضررين.
- العبرة بكمال النهاية لا بنقص البداية.
- السياسة جلُّها ترجيح بين المصالح.
- أيسلم منك الروم ولا يسلم منك أخوك المسلم.
- احرص على النصوص المحكمة ودع عنك المتشابهة.

٨. حاول بالخلق الإسلامي، وكن هادئاً مبتسماً، ولا تغضب، ولا تتفوه بكلمة فيها تجريح أو إساءة، واحذر الغيبة، وحاول أن تفصل بين التهمة وبين مثيرها، وإياك أن تتهم النيات، وأشرك الطرف الآخر في البحث عن الحق، وأظهر مواطن الالتقاء والتوافق، ولطِّف الجو بالطرائف، ولا تتأفف كثيراً، ولا تقاطع، واحذر الاستفزاز..إلخ. كل هذه الآداب ندعوك للحرص عليها كما ندعوك بأن تطالب الطرف الآخر بها.

٩. حاول أن تستشهد بأقوال وآراء ومواقف من يثق بهم الطرف الآخر ويعتبرهم قدواته وشيوخه.

١٠. ادع الله أولاً وآخراً أن يشرح صدرك وصدر الطرف الآخر إلى الحق، وأن يريكما الحق حقاً ويرزقكما اتباعه، وأن يريكما الباطل باطلاً ويرزقكما اجتنابه، وأن لا تكون للحوار أثار سلبية سيئة بإيغار الصدور وغرس العداوة والبغضاء في النفوس.